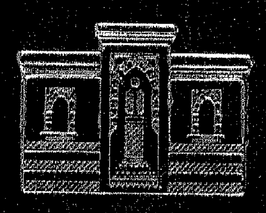
دار الكتب والوثائق القومية
تراث الاستنارة

محاورات رينان الفلسفية

للكاتب الفيلسوف والمؤرخ اللغوى
أرنست رينان

نقلها إلى العربية
على أدهم



مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٩٩٨

دار الكتب والوثائق القومية

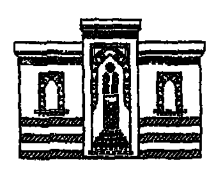
محاورات رينان الفلسفية

للكاتب الفيلسوف والمؤرخ اللغوى

﴿ أرنست رينان ﴾

نقلها الى العربية

علي أدهم



مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٩٨



الفيلسوف ارنست رينان

تصدير

لارنست رينان مكانة ملحوظة الجلال فى تلك المنظومة الفريدة من مبرزى الكتاب، وأعلام الفلاسفة، وأعيان المؤرخين، ونوابغ المستشرقين، التى أزدان بها الأدب الفرنسى فى القرن التاسع عشر، وبعد صيته وعظم تأثيره واتسع ثراؤه. ورينان من أحق رجالات الأدب الفرنسى بالعناية وأجدرهم بالدرس لأنه نسيج وحده فى تعدد مناحى الفكر، وتنوع المواهب، فهو فيلسوف يعالج الموضوعات الكبرى، وكاتب خلاب الأسلوب، وناقد نافذ البصيرة، ومؤرخ موفق الروية، وقد جمع بين عمق الاحساس الشعرى واستفاضة المعرفة، وبين سعة العقل وحرية الفكر وسراوة الأخلاق والقداسة، وكان لكل فكرة من الأفكار فى عقله مدار، ولكل عاطفة بشرية فى قلبه صدى وأن كان يدمن تصفح الأفكار دون أن يستأسر لها ويملك العواطف دون أن تتملكه، وقد ترك طابع هذه الصفات العقلية العالية، والمناقب الخلقية الحميدة، على آثار فنية رائعة حظها من التجويد وفير، ونصيبها من الخلود كبير، وهى علالة المفكر فى أحوال المجتمع وغاية الوجود، وسمر المسافر فى غيابات التاريخ، ومؤنس الحائر فى موحشات المباحث اللغوية.

وليس الاعجاب برينان وتقدير عبقريته موقوفاً على قومه وحدهم فقد ملأت شهرته الاقطار وملأت العقول والأسماع، ورفعته الانسانية إلى مرتبة أساتذة الحكمة الخالدين ، الذين تحرص على آثارهم وتصون أسمهم عن الأغفال والنسيان ، وتلتمس عندهم الهبات الروحية والعزاء النفسى . على أن رينان كسائر كبار الكتاب، قوته متوقفة على قوة عصره ، وكما أنه لامعنى للكلمة فى غير موضعها ، ولا قيمة للنغمة فى غير لحنها ، كذلك الكتاب العظماء لايمكن أن نفسر عبقريتهم ونستوضح معناهم بغير الرجوع الى العصر الذى اشتمل عليهم . ولئن كنا نحصُرُ النظر فى حياتهم ونقصر البحث على أفكارهم ومراميهم، فما ذاك إلا لأن النزعات الفكرية الغالبة على عصر من العصور لاتكاد تبدو بين غبار الأهواء العمياء والحوافز المظلمة . وإنما تظهر جلية ناطقة فى نفوس كبار الكتاب . والكاتب الكبير يتشرب عصره ويستوعب كل محصولاته الفكرية ويجمع تفاريق نزعاته ، ومن أكبر ميزاته أنه يحسن تمثيل عصره ويدل عليه أوضح دلالة . ومن الدروس النافعة التى يتعلمها الانسان من الفكر الحديث أن كل مفكرى عصر من العصور مهما تمادت بهم أسباب التفرقة يعبرون عن جوانب مختلفة لفكرة واحدة، وأشد ما يتجلى ذلك فى المذاهب الفلسفية . وليس التفوق فى الكتابة ، وتبوؤ الصدارة فى ديوان الأدب متوقفاً على

الابتكار بالمعنى الذى ألف ترديده بعض الكتاب الذين يحاولون أن يدخلوا على الناس أن الكاتب المبتكر مثل العنكبوت ينسج خيوطه من أمعائه. وانما الكاتب مثل النحل يمج الشهد الذى يجمعه من مختلف الازهار وشتى الحقول.

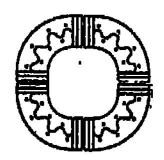
تلقاء ذلك رأيت أن أنسب طريقة أمهد بها السبيل الى فهم رينان بعض الشيء هى أن أكتب مقدمة موجزة أشير فيها الى موقفه من الحركة الفكرية التى قامت فى القرن التاسع عشر وأكشف عن تأثيرها فيه. وهو بحث عويص مشعب الإطراف كنت أوثر السلامة على التورط فى غمراته. ولكنى أعلم العلم كله أن المترجم فى هذا البلد من واجبه أن يكون شارحا الى حد ما، ومن استيفاءات عمله أن يضع القارىء على النهج وينير له الطريق، وفى غير بلادنا يتولى الاضطلاع بهذه المهمة الناقد الصحفى، ولكن الصحافة عندنا لا تزال قايلة العناية بنقد الآثار الادبية، لذلك كتبت هذه المقدمة على سبيل الاضاءة ليس غير

وقد ترجمت هذا الكتاب لانى قرأته فاعجبت به. وراقنى منه تسهيله لمستوعرات الفلسفة. واشاعته النور فى النواحى التى يخيم عليها الظلام السرمدى، فضلا عما فيه من مادة صالحة للتفكير الفلسفى وغذاء للعقول المتطلعة، وسيشرف القارىء منه على عقل من أوسع العقول وارقاها ثقافة، يواجه فى صراحة مستحبة

أقدس المسائل ويتناول المشكلات المستعصية ، ويروى لنا بامانة نادرة أراءه وأحلامه ويقينياته وشكوكه وهواجس نفسه وطمحات خياله . واعلم أن من الشباب المتعلم لفيفا يقسمون البحوث الفكرية الى قسمين : قسم الضروريات وقسم الكماليات . وهم يلحقون مثل هذا الكتاب بالقسم الاخير . وليس من همى استنزالهم عن هذا التقسيم وتهجين هذا المذهب . وانى أعرف قصورى بازاء منطقهم القويم منطق الفائدة والمصلحة وتقدير الامور بالدرهم والدينار ووزنها بالقيراط والمكيال . غير أنى أقول أن ما يراه فريق من الناس من قبيل الكماليات قد يراه غيرهم من صميم الضروريات والعكس بالعكس ، ومن الناس من يرون أن الفكرة غير المنظورة أصدق وجودا من المادة الملموسة

وقد تحريت جهدى الامانة فى النقل ، لأنى لم أستطع أن اسيغ فكرة التصرف فى الترجمة . بيد أن الناقد المتشدد الولوع بتصيد الهفوات والوقوع على المعايب من تحريف و تشويه أو سهو وسوء فهم قد يصيب فى هذه الترجمة شيئا من بغيته . لانه ليس فى وسع مترجم مهما أوتى من البسطة والتمكين أن يدعى العصمة . على أنى لا أحسب مثل هذا الناقد أهلا لان تزف اليه التهانى وتدق له البشائر . وقد يثبت بنقده أنه فارس ميدان ومجلى الحلبة ولكن طريقته لاتدل على أنه يملك هبة النقد الساميه

والنظرة الفنية الشاملة التى ترفع الناقد الى مستوى الخالقين العظماء . وأرى أن مقياس الاجادة فى الترجمة ، هو القدرة على التشبع بروح المؤلف ، والناقد الفنى هو الذى ينظر الى الترجمة من حيث هى قطعة فنية تلائم روح المؤلف او تناكرها وتعرب عنها أو تطمس معالمها . ويسرنى أن تقاس هذه الترجمة بهذا المقياس سواء أسقطت به أم قامت، وشال بها الميزان أم رجح . فاذا كنت قد وفقت فى سبيل ذلك بعض التوفيق فسيكون فى ذلك عزاء لى على ما احتملت من عناء وما أنفقت من جهد . واذا كان الفشل نصيبى فمما يسرنى أن يعيد غيرى الكرة ويتم ما حاولت أن أبدأه .



مقدمة المعرب

خصائص العصور التاريخية — نضوج الحاسة التاريخية فى القرن التاسع عشر — تأثر ثقافة القرن التاسع عشر بالثورة الفرنسية ونهضة الفكر الالمانى — أثر الروح الرومانتك — الفكرة الرئيسية فى الفلسفة الالمانية — الحركة الفلسفيه من كانت الى هجل — ظهور كارليل و رينان و تأثرهما بالفكر الالمانى — وجوه الشبه والخلاف بين كارليل ورينان — أثر الروح العلمية فى رينان — فلسفة رينان وتأثرها بفلسفة هجل — رينان و نزعة الدلتانتزم — حياة رينان وأخلاقه — رأيه فى الساميين

تاريخ الانسانية كل حي مترابط الاجزاء متصل الحلقات بحيث لانستطيع أن نفهم مظهرا من مظاهره حق الفهم اذا نظرنا اليه منفرداً مبتوت الصلة بسائر المظاهر . فليس يكفى اذا حاولنا أن نفقه تاريخ العرب ، ونقف على سر تاريخ الرومان ونصل الى صميم تاريخ اليونان ، أن نلم بتاريخ كل أمة من هذه الامم على حدة كأنها قامت فى غفلة من الدهر وبمعزل عن الامم ، ولا معدى لنا اذا أردنا أن نجيد البحث ونسدد النظر عن مراقبة اتصال الحوادث العالمية وتسلسل الحركات التاريخية ، والوقوف على مدى تأثير كل حضارة فى الحضارات التى تليها ومعرفة ما استمدته الحضارة من سوالف الحضارات وغابر الامم وما ابتكرته من تفكيرها الخاص ، ولو أننا قصرنا النظر على تاريخ أمة بعينها لضل منا الرأى

واعتور الشطط أحكامنا وكانت مظنة المبالغة وهدف التعصب ،
وغم علينا تفسير الكثير من أحوال المجتمع وملابساته وقوانينه
وشرائعه وسائر مقومات حضارته ومشخصات كيانه .

وعندما نرسل النظر فى التاريخ مجتمعا متلاحم الاجزاء نلمح
وحدته الحية ونرى الحضارة العامة تغذ السير متنقلة بين مختلف
الامم كالنهر المديد تمده الروافد والاخوار حتى تصب فى محيط الابد
العظيم الذى ينتهى عنده كل جهد . وندرك أن الحضارة شيء متحرك
غير مستقر بحيث لا يمكن أن نلمحها الا فى نموها المتزايد وتطورها
المستمر ولولا ذلك لاستسرت علينا مظاهر الاشياء وغابت عنا
أصولها الواشجة فى القدم . وهذه النظرة العامة للتاريخ خليقة بان
تردنا الى الحق وتوحى الينا الاعتدال فى الحكم اذ تبصرنا فى مجرى
الحوادث العام مكان الحضارة التى قد تختلج بنفوسنا الرغبة فى ايثارها
وتفخيم أمرها والتعصب لجانبها

واذا الفنا هذه النظرة واستضأنا بها فى بحوثنا التاريخية
استبانت لنا مميزات كل حضارة وخصائص كل دور من أدوارها
وتجلت لنا الفروق بين الحضارات على أتم ما يكون فى آثارها
الادبية ومظاهر حياتها الروحية . فان لكل حضارة لونا خاصا من
ألوان الادب والفن تتخذه للتعبير عن ذاتها وتصوير حياتها فتتمثل
فيه نوازع النفوس ووجهات التفكير ، وتصطلح ظروفها الخاصة

وقوتها المكنونة على تأكيد هذا اللون حتى يصبح شارتها المعروفة وميسمها الواضح ، ولكل دور من أدوارها صفته المنفردة وعقليته الممتازة ونصيبه الخاص

من أمثلة ذلك القرن التاسع عشر . فان لونه الخاص وصفته التى تفرد بها هى النزعة التاريخية . ولقد كان هذا القرن هو العصر الذهبى لدراسة التاريخ . ولقد بز فى ذلك سائر العصور وازرى بكل جهودها فى هذه السبيل . ولم يجمع عصر واحد من عصور الدنيا ماجمعه هذا القرن من عظماء المؤرخين . ولقد كان كبار كتاب هذا القرن يبدأون بالتاريخ وينتهون به ويبثون فلسفتهم الاجتماعية على الاستنباط التاريخي ويدعمون آراءهم بالشواهد التاريخية والأسانيد الاثرية . وتعددت طرائق تفسير التاريخ ، فمن مفسر له من الوجهة الروحية الى مفسر له من الناحية المادية . ومن مؤرخ شعبى النزعة إلى آخر ارستوقراطى المرمى . ومن مصور لحوادث التاريخ بارع ، الى محلل لعناصره قدير . وكان فحول الشعراء يستعيرون من صوره ويحيون شخصياته . وكان المصلحون يحثون على دراسته للوعظ والعبرة وقادة السياسة يديرون فيه النظر للحنكة والدراية . ووجه اليه الروائيون شيئاً غير قليل من مجهودهم وأفسح له الفلاسفة مكاناً ممتازاً فى فلسفتهم .

وتظهر ميزة هذه النزعة التاريخية فى أبهر مجاليها عندما تقابل

حالة الحياة عند اليونان بحالة القرن التاسع عشر . فقد كانت الحياة اليونانية قائمة على تجاهل هذه النزعة واهمال شأنها . وبينما كان الانسان فى القرن التاسع عشر ، يرى أن حياته حلقة من سلسلة حياة طويلة سائرة من آلاف السنين . كان اليونانى يرى نفسه كلية تامة ووحدة مستقلة . وكان اليونانيون يضفون على الماضى ظلال الاساطير ويحيطونه بآثار من الخلود فلم يكن عجيباً عندهم أن ينتسب الاسكندر إلى دايونيزاس، ولا إن يلحق قيصر نسبته بفينوس ، فتجور منطقة الاسطورة على عالم التاريخ ويغيب الحق التاريخى فى جو الرموز والأسرار . وكان الحاضر هو مناط براعة مؤرخى اليونان وكانوا يجيدون فهمه وتصويره وكانت تنقصهم قوة مشاهدة الماضى واحياء صوره على حين ان أعظم الطرف التاريخية التى خلفها مؤرخو القرن التاسع عشر هى أشدها إمعاناً فى القدم وتغلغلا فى الماضى . ولقد كتب العبرانيون تاريخهم وملأوه بجليل الحوادث ورددوا فكرة العناية الآلهية المسيطرة على الدنيا المتصرفة فى مصائر الدول، تلك الفكرة التى تركت أعمق أثر فى الكثيرين من مؤرخى أوروبا . ونبغ من العرب مؤرخون كبار أظهروا كفاية نادرة فى جمع الحوادث واستثبات النصوص، ودل أحدهم على عبقرية فائقة فى نظراته الى الشؤون الاجتماعية . ولكن المؤرخين المتقدمين فى جملتهم على براعتهم وفضلهم كانوا يندون

عن الصواب ويخالفون شرعة الانصاف عند مايحاولون أن يصفوا عصراً غير عصرهم، وأمة غير أمتهم . فمؤرخو اليونان كانت تنم كتاباتهم على إحتقار غريب للغير وسوء فهم لأحواله ولم يبرأ بعض مؤرخيهم من وصمة تلفيق الأكاذيب وتنميق الأساطير اكباراً لشأن أمته واستصغاراً لامر غيرها . وكانوا لا يعيشون إلا في حاضرهم بل لم يفهموا من حاضرهم إلا ما كان تحت أعينهم وفي متناول حواسهم . وكانوا إذا حكموا على الماضي قاسوه على الحاضر . وإذا نظروا الى أمة غير أمتهم نظروا اليها في ضوء معتقداتهم الخاصة وعايروها بمعاييرهم الأدبية وهكذا لم يملك اليونانيون ، على سمو ملكاتهم الفنية ، التصور الانتقادى للتاريخ ، وكان العبرانيون يعتقدون أنهم شعب الله المختار ، ولم يكتب العرب عن غيرهم من الامم مايدل على تحرى الحقيقة وتوخى الانصاف ولهم في ذلك ضروب من التخليط تصلح للفكاهة في ساعات الفراغ

بل مالنا نبعد الخطو ونرجع الى التاريخ القديم وأمامنا القرن الثامن عشر . فقد كان ينقص مؤرخيه العظماء الخيال العاطف الذى يمكن المؤرخ من النفوذ الى أرواح العصور السالفة ومشاركة أهلها في احساساتهم : وكان مؤرخوه يأخذون فكرة أن الانسان في كل زمان ومكان هو الانسان بعينه قضية مسلمة لا يأتيها الباطل

أما القرن التاسع عشر فقد برىء من أكثر هذه العيوب

ونضجت فيه الملكة التاريخية أتم نضوج وامتاز من بين سائر القرون بلطافة المدخل الى باحات النفوس وحمى السرائر واستبطان دخائل الروح واستيحاء طيوف الماضى واحياء شخصياته الكبيرة . وقد تآزر عاملان بينهما شابكة قربى على اسباغ هذه الروح على القرن التاسع عشر . العامل الاول هو الثورة الفرنسية، والعامل الثانى هو نهضة الفكر الالمانى

غيرت الثورة الفرنسية الافكار وقلبت النظم وطوت الخلف بين الامم وقربت مابين قلوبها المتباعدة ونفوسها المتناكرة . فاتصلت الافكار وامتزجت الثقافات وانداحت دوائر البحث وأقبل الناس تحدوهم العاطفة المشبوبة والهمة الناشطة يبحثون من جديد فى العلم والدين والادب والتاريخ والفلسفة وغيرها من المعارف البشرية ، وكما استطاعت الثورة فى الميدان السياسى أن تخلع نير العبودية وتهدم السلطات الغاشمة وتسترد الحرية المغصوبة والحق المهضوم ، فكذلك فى الميدان الفكرى مهدت السبيل الى التخلص من ربقة التقاليد واهدرت حرمة تلك القداسة الوهمية المضروبة حول بعض المباحث الفلسفية وأزاحت عن الصدور كابوس التعصب

وكانت يقظة الاهتمام التاريخى ثمرة من ثمرات الاهتمام الرومانتى بالحياة، لان الروح الرومانتية التى استحوذت على النفوس فى طليعة

ذلك القرن كانت مولعة بالغرائب موكلة بالاسرار، فلا غرو ان رأت فى كل عصر من عصور التاريخ ما يثير طلعتها ويطلق خيالها. فالعصور الوسطى تستهويها لما حفلت به من غرائب مدهشة واقاصيص عجيبة ولما فيها من كرامات القديسين ومعجزاتهم الخارقة والقلاع المهجورة والقصور المسحورة والفرسان الامجاد وابطال الصليبيين والدولة الرومانية المقدسة وبطلها شارلمان حامى حمى النصرانية الذى نسجت حوله طائفة من الخرافات لم ترحمها معاول النقد الحديث ، والشرق يخلب لبها لانه مشرق الحضارة ومهبط الاديان الكبرى ومسرح الانبياء

لذلك اتسع نطاق الابحاث التاريخية وكثر ايفاد البعوث للتنقيب عن الآثار والالمام باحوال الامم الغابرة والحاضرة، وترجمت كتب ديانات الهند الى اللغات الأوربية وجعل الشعراء يقلدون الحلولية الهندية والصوفية الفارسية ، وعظم شأن الماضى فى نفوس الباحثين وأيقنوا أن الحاضر الراهن هو صفحة واحدة من صفحات كتاب الانسانية الضخم لا يعبر عنها التعبير الوافى ولا يعطى عنها فكرة صحيحة، وعرفوا أنه لا يوجد شىء غير جدير بعنايتهم مادام يصف عاطفة انسانية أو يثبت حادثة تاريخية فجمعت الملاحم وحفظت أغانى القرويين واساطير الشعوب وقصص الجان والمردة وشرع علماء اللغات يدرسونها فى نور التحقيق التاريخى، وتغير نظر

المفكرين للتاريخ فصاروا لاينظرون فيه على أنه مجموعة من الامثال صالحة لتحضير الخطب واستخراج المواعظ والعبر وجمع الشواهد للقدوة الحسنة أو للمباهاة بمجد الاجداد وغرر المفاخر، بل من حيث هو تطور عميق شامل

وكان هناك شعب خامل طالما رماه جيرانه الاذكياء بكثافة الشعور وجمود الظل . وهو الشعب الالمانى . وكأنما دقت الساعة اذ ذاك وآن الاوان ليتولى هذا الشعب الزعامة الروحية لتلك الحركة الفكرية الباهرة وقد أحدثت الثورة فى فرنسا انقلابا سياسيا اجتماعياً وأحدثت فى انجلترا انقلابا فى الادب والشعر . أما فى المانيا فانها أحدثت نزعة فلسفية وذلك لانه من مميزات الثورة الفرنسية انها وجهت العقل الانسانى الى ناحية التجريد ولم يكن هناك شعب أكثر قابلية لمجاراة هذه النزعة الفكرية من الالمان فان لغتهم معروفة بأنها لغة تجريدية . وبفضل هذا الاستعداد وصلوا الى الافكار الكبيرة وشيدوا الابنية الفلسفية العجيبة. وكانوا يشعرون أن وراء بلاغات العصر المدرسى وزخارفه وتحاسينه ، غوراً أعمق. وأن خلف المذاهب المتباينة والاعتقادات الدينية المتعددة ، العاطفة الدينية. وان خلف القواعد والتفاعيل والاوزان ، الجمال الشعري . وأن وراء ظواهر هذا الوجود ، سره الباطن الخفي .

ولقد كانت الحركة الفكرية فى القرن الثامن عشر من عمل

فرنسا وانكلترة . فقد رأست فرنسا الحركة الفكرية فى عهد لويز الرابع عشر . وخلفت فيها ايطاليا . ثم نازعت انكلترة فرنسا تلك السيادة الفكرية بظهور نيوتن . ولم يقطع التصادم الحربى بينهما تيار الاتصال الفكري. وقدعد «بوكل» المؤرخ امتزاج العقل الفرنسى بالعقل الانكليزى أهم حوادث القرن الثامن عشر

أما المانيا التى أخذت تبرأ من حرب الثلاثين سنة فكانت فى سنة ١٧٠٠ فى المؤخرة وظلت كذلك حتى سنة ١٧٦٠ فكانت تلعب دوراً ثانويا وتتغذى على موائد فرنسا وانكلترة الحافلة ، حتى ظهر «لسنج» شيخ نقادالالمان ورأس أدبائهم ومن حين ظهوره أخذ الادب الالمانى ينهض من كبوته ويتبوأ مكانه وشرع مفكرو الالمان يكملون ما بدأه «روسو» فى فرنسا وهيوم وبرك فى انكلترة وتعلموا من روسو فكرة الحرية وتقديرها وأخذوا عن هيوم فكرة تحديد المعرفة البشرية واستمدوا من غيبون ومنتسكيو آراءهما فى التاريخ ودراسته كما استفادوا من رسالة بيرك عن الجميل والجليل

وتجمعت التيارات الفكرية كلها فى المانيا وأعان الشعر الفلسفة ونشأت نظريات فى التاريخ وفلسفته وكانت الفكرة الغالبة على هذه الحركة هى فكرة التطور التاريخى التى بدأها لسنج وأتماها هردر وجيته وبلغت نهايتها فى فلسفة هجل . وكانت هذه التصورات

الجديدة للحياة والتاريخ تتطلب افقا فكريا أوسع من الافق الذى أوجدته فردية روسو وفلسفة هيوم . ففى هذا الموقف نبغ «كانت» الذى احدث ثورة فى الفلسفة وجمعها من أطرافها ووضع أساس التفكير الفلسفى للمذاهب الجديده

وقد قال النقاد الكبير « تين » فى كتابه القيم عن تاريخ الادب الانكليزى « أخرجت المانيا بين سنة ١٧٨٠ وسنة ١٨٣٠ كل أفكار عصرنا التاريخى . وواجبنا لمدة نصف قرن — بل ربما لمدة قرن برمته — هو أن نعيد التفكير فيها » وهكذا ظهرت فى ألمانيا العبقرية الفلسفية فكانت تاج نهضتها كما ظهرت فى ايطاليا فى عصر احياء العلوم العبقرية الفنيه

ومصدر قوة الالمان هو القدرة على اكتشاف الافكار العامة ولم يبلغ أحد مرتبة الالمان فى ذلك . وهى سر كل ما بلغوا وكانت هى الملكة المسيطرة على عقلهم. وكانوا بهذه الملكة يجمعون تحت فكرة واحدة الاجزاء المنتثرة لشيء ما . ويرون وراء كل فصيلة من الفصائل الرابطة العامة التى تربطها الى بعضها وتلائم بين المتناقضات ويستحضرون الوحدة للاشياء المختلفة فى الظاهر. وهذه هى الموهبة الفلسفية التى طبعت كل مؤلفاتهم بطابعها . وبها بثوا الحياة فى البحوث الجافة وافاضوا الضوء فى مظلم المشكلات وادركوا أرواح العصور واستخلصوا قوانين التاريخ من اخلاط الفوضى وشوائب الغموض

وابتدعوا علوم اللغة والاساطير وأساليب النقد والتاريخ . وكانت كل مذاهب المانيا الفلسفية تطبيقات مختلفة لنظرية واحدة وهى نظرية الوحدة المطلقة لهذا الكون فكل مظهر من مظاهر هذا الكون جزء من كل . ولاجل أن نفهمه علينا أن نعيد بناء هذه المجموع فى الفكر . وهذا المجموع يتصل بمجموع أخر . وهذا بثالث وهكذا الى مالانهاية حتى لايبقى شىء منفصلا فى هذا العالم وحتى تتمثل الدنيا متكونة من مظاهر لايأخذها الحصر . ولكن هذه المظاهر تفنى وتتساقط ، وهناك قوة كامنة فى صميم الكون لا يمكن تفسيرها تجدد هذه المظاهر البالية المتكسرة وتردها الى الحياة ، ولهذه الفكرة تطبيقات لاتعد ولا تحصى .

ولعل أكبر ممثلى هذه الحركة هو الفيلسوف الكبير "هجل" الذى يعتبره الكثيرون من نقاد الفلسفة المكمل الحقيقى لفلسفة « كانت » وهجل رجل شديد الغموض فى فلسفته بعيد الشقة على من رامه لايغتفر لقارئه الجمود الفكرى ولا الكبرياء الاجوف . ولا بد أن تأخذ له عدته قبل أن تلم بشىء من أفكاره ولا يجمل برجل حسن التثقيف أن يجهل الحركة الفلسفية من « كانت » الى هجل ، الجهل المطلق لأن من جهل ذلك فقد جهل تاريخ الحركة الفكرية العالمية . وسألم بها المامة يسيرة تناسب الايجاز الشديد الذى أتوخاه

بدأ « كانت » فلسفته بهدم فكرة أن العقل البشرى لايحوى

غير الصور التى تنطبع على لوحته من الخارج بطريق الحواس .
وذلك لانى عندما أشاهد جثة رجل قد وافاه الموت من جراء
جرح رغيب أسائل نفسى فى التو واللحظة «من قتل هذا الرجل؟»
فوظيفة الحواس هنا أنها أرتنى الجثة ولكن سؤالى لنفسى يتضمن
البحث عن السبب . وليس هذا نتيجة التفكير والروية وانما هو
فيض العقل وبداهة الفكر الذى يربط الفكرة بالاحساس .
فالامر اذن على نقيض ما كان يراه القرن الثامن عشر ، والعقل
البشرى لاتصوغه التجارب الخارجية ولا توجده الحوادث وانما
نحن ندرك الاشياء الخارجية لانها تأخذ شكل عقلنا وتنطبع بطابعه
وكما أن كوبرنيكس عجز فى بادىء الامر عن تفسير نظام الكواكب
لانه فرض أن الشمس والكواكب كلها تدور حول الارض ولم
يهتد الى التفسير الصحيح الا عندما أدرك أن الامر على خلاف
ماقدر وأن الارض والنجوم والكواكب تدور حول الشمس
فكذلك « كانت » بعد أن بدأ يبحث عن تفسير العقل البشرى فى
العالم الخارجى عاد فغير طريقته وثبت له أنه يجب الابتداء بفهم
العقل فى ذاته وفحص داخليته . ولما كان العالم الخارجى لايبدوا لنا الا
فى الصورة التى تصوره بها قوانين العقل البشرى لذلك لايمكننا أن نتعرف
القيمة الحقيقية للاشياء الخارجية الا بعد الوقوف على ماهية قوانين
العقل البشرى وانى مضطر الى ان أتصور الاشياء فى الزمان

والمكان . لا لأن فكرة الزمان والمكان نفذت الى ذهني من الخارج بل لأنها هي نفسها قانون عقلي ولا يمكنني تقدير هذه الفكرة الا بدراسة القوانين العقلية . . . . . . وبهذا الاسلوب في التفكير قضى « كانت » على فكرة ان العقل أشبه باللوحة ينطبع عليها المؤثرات واسترد العقل البشري حقوقه المضيعة ومواهبه المنكورة ولكن الجو الفكري لم يلبث ان غام وساور النفوس القلق وخيف ان يعود الشك القديم الذي لاقى كبار الفلاسفة القدماء عناء جما في ردعرامه وانقاذ النفوس من وساوسه ويستفحل أمره وتستعصى علته وذلك لان « كانت » ترك الروح البشرية كالمحبوسة ترقب العالم الخارجي من وراء قضبان الحواس واثبت أن الدنيا التي نراها هي الدنيا كما تصورها حواسنا . وهنا ظهر « نخته الفيلسوف » وقال ان الدنيا من خلق عقلنا. وأدهش مرةسامعي محاضراته بقوله في نهاية احدى محاضراته « غدا ياسادة سننتقل الى خلق الله »

في هذا الموقف العصيب وافى العالم « هجل » وفي يده عصاه السحرية التي جاء بها بالمعجزات وهي أسلوبه في المنطق المسمى المذهب الجدلي وحاول «هجل» أن يمحو التناقض بين « الانا » و « غير الانا » فقال ان الاثنين مظهر للمطلق وحاول الاهتداء الى المطلق بدراسة الروح البشرية . والمطلق هو باعث الحياة في الكون وليس هو فكرة مجردة وانما هو مصدر حقيقة النفس واللانفس .

وهو فى حالة صيرورة دائمة ولا يمكن تفسير الكون والطبيعة والتاريخ الا بالرجوع الى المطلق الذى يتراءى خلالها . وكانت فلسفة التاريخ من الاركان الاساسية فى فلسفة «هجل» لانها قائمة على المطلق الذى من شأنه أن يصير شاعرا بنفسه فى التاريخ ومن ثم أصبح للتاريخ أهمية كبرى لانه يفسر ترق المطلق وتكشفه حينا بعد حين. وقد رحب عالم الثقافة بهذه الفلسفة كل الترحيب واعتدها حلا مقبولا لمسائل طالت معالجتها وأثرت تأثيرا بالغا فى الثقافة عامة وفى دراسة التاريخ خاصة . ولايزال أثرها باديا الى اليوم حتى فى بعض الكتاب الذين يرفضون فلسفة « هجل » ويعدونها دعوى عريضة وجرأة ممقوتة

وقد ترك « كانت » التناقض بين النفس وبين الشيء فى نفسه ، وحاول شالخ ونخت التوفيق بين الاثنين بالغاء أحد الجانبين . أما هجل فحاول أن يوفق بين الاثنين ويلائم بين عالم العقل وعالم المادة وبين الروح والطبيعة وعالم الفكر وعالم الواقع لأنه رأى أن كل هذه المتناقضات تضمها وحدة الفكر ولأن المطلق هو الشعور المدرك الذى يُرَدُّ اليه كل شيء ويجد فيه ما يبرر وجوده ويفسر معناه

ويعتقد هجل أن هذا المطلق يمكن ادراكه بالعقل ومن ثم هو خصم لدود لمذهب اللاأدرية من ناحية وللمذاهب الصوفية من ناحية أخرى . والمطلق فى زعمه روح حية دافقة تنبعث منها

كل المظاهر الزائلة وتتحقق كل الصور . وأدراكه هو غرض الثقافة والفلسفة والدين والعلم

ويوجد المطلق أولا فى صورة فكرة نقية ثم يهبط عالم الطبيعة غير الشاعرة ثم يسمو الى درجة الشعور فى الانسان ويتحقق أكثر فأكثر فى النظم الاجتماعية ثم فى الفن والدين والعلم ثم يعود الى نفسه ثريا حافلا

وتقتضى وحدة الفكر أن نتصوره على أنه وحدة المتناقضات ففى الحياة الدارجة يدرك فهمنا جزءاً من الكل . وهذا الجزء بضرورة الحال ليس كاملا فى ذاته بل يدل على شىء آخر . ولسنا نصل الى الحق إلا بتأمل الجانبين . وفى ترقى الفكر تنتقل كل فكرة الى نقيضها ولا نصل الى الحق إلا عند ما نعتبر الجزءين مكملين لبعضهما البعض . ويسمى «هجل» الانتقال من أبسط الأفكار الى الافكار المركبة بطريق النفى والتناقض منطق الفكر Dialectic of thought وهذا المنطق قائم على الاقرار بالتوافق بين المتناقضات . فكل تأكيد دليل نفى وكل نفى يدل على تأكيد وهذا القانون يسير من حالة إيجابية Thesis إلى حالة سلبية Antithesis ومنها الى حالة متركبة من الأثنين أى حالة سلبية يجابية Synthesis وهكذا تترقى المتناقضات الى حالات تركيبية سمى ، وقانون المتناقضات فى المنطق الذى يقول بعدم اجتماع

النقيضين يعنو لمنطق أسمى هو منطق الحياة الذى يقول بأن الحقيقة مكونة من المتناقضات وأن الكل هو الحقيقى وكل ماخلاه طل وتزائف . والحقيقة الجزئية هى محض تجريد ولا قيمة لها إلا عند ماتتصل بالكل. وكل مافى الوجود خاضع لهذه الحركة الثلاثية من أبسط الكائنات الى أسماها. فالفكرة تترقى من التجريد الذاتى البسيط الى الوحدة والدنيا تسير هذا السير . والطبيعة والتاريخ والفلسفة تمثله فالبذرة داخلها شجرة البلوط ولكن شجرة البلوط عند نمائها تنفى البذرة وتحققهما معا. والطفل طيه الرجل ولكن الرجل ينفى الطفل ويؤكده معا والتاريخ يمثل ذلك فى مجال أوسع وتنتقل الحضارة فى تطورها من دور الى دور بتأثير تفاعل الميول وتباين النزعات ، فعصور السلطة تتلوها عصور الفوضى ثم ينشأ من الاثنين عصر حرية أسمى ، فالكون اذن فى نظر « هجل » تطور شامل يتراءى المطلق خلاله

هذه لمحة من تلك الفلسفة التى غمرت العالم فى أوائل القرن التاسع عشر وأثرت ايما تأثير فى نفوس كبار المفكرين وملأت الجو الفكرى بالافكار والتأملات

بين هذه التيارات الفكرية القوية والحركات الناشطة ظهر كاتبان مؤرخان بينهما وجوه كثيرة من التشابه والاختلاف وأخص صفة يشتركان فيها هي أنهما يعبران الى حد كبير عن روح عصرهما

ويمثلان نزعة القرن التاسع عشر التاريخية فى أوضح صورها ، أحد هذين الكاتبين «توماس كارليل» نشأ فى هضاب اسكتلندة وفى أشعار جيتى والفكر الالمانى . والآخر هو ارنست رينان الذى نشأ فى برارى بريطانيا وتشبع بالفكر الألمانى . وهذان المؤرخان الكبيران كلاهما مؤثر للابطال والعبقريين ساخر بالجماهير والجماعات يرى أن خلاص الدنيا هوان يسيطر على فى أمورها فئة من العلماء الاشراف وكلاهما رزق الى حد كبير تلك الحاسة التاريخية النادرة وهى القدرة على استقراء نفسية أهل العصور السالفة والنفوذ الى مسالك خواطرهم ومضطرب أهوائهم وبفضل هذه القدرة صار الاول مؤرخ أكبر ثورة عرفتها القرون الحديثة وهي الثورة الفرنسية وصار الثانى مؤرخ أكبر انقلاب فى العصور القديمة وهو ظهور الديانة المسيحية . وكلاهما أضاف الى طبيعته السرية ومواهبه العالية التوسع فى الاطلاع والصبر على الاستقصاء فكان الاول أول من فتح أبواب بلاد الانجليز للأدب الألمانى وأول من أسمع قومه كلمات «جيتى ونخته» ونوفاليس وزختر وغيرهم من عظماء الألمان. أما الثاني فقد طاف به اطلاعه الواسع وخياله الجوال على أطلال بابل واشور وآثار العبرانيين حتى استخلص تاريخهم من نواحى الغموض وأرسل عليه أشعة لا تزول . وكان كلاهما من الحين الى الحين يعود من رحلته فى الماضى ليتناول مشكلات عصره وازماته المستحكمة فيدلى فيها بالرأى الموفق والحكم النزيه

وظهر كلاهما فى أوانه فكان نتيجة منطقية للمقدمات التى ألمعنا اليها إذ كان البحث الألمانى قد مهد السبيل وجمع المواد وأوجد الصيغ والمقاييس فنفخ كل منهما الحياة فى تلك المواد المكدسة وصبها فى القالب الفنى ومنحها حرارة القلب وأراق عليها ضوء العبقرية. وكان كلاهما ينظر الى التاريخ تلك النظرة الكلية فيراه دراما كبرى تمثلها الأمم على مسرح الليل والنهار الذى تضيئه الشموس والاقمار والنجوم الزاهرة. وكان يغلب على كليهما الاحساس الدينى والشعور الادبى المتجه الى خوالج الضمير وخفايا النفس وكان هذا فى نفس «كارليل» من تأثير الوراثة «البيوريتانية». أما «رينان» فقد ورث عمق العاطفة الدينية وقوة الشعور الاخلاقى من أجداده السلتيين. وقد نشأ فى جو مفعم بالحزن محفوف بالجلال ينمى فى الانسان المشاعر الغامضة والاحساسات الدينية لأن هنالك فى تلك البرارى الموحشة من مقاطعة بريطانية حيث تهدر أمواج البحر المزبدة الطاغية، وحيث الفضاء المتجهم والسحب المتراكبة تستولى على الانسان الكآبة ويفارقه المرح ومن ينشأ فى تلك الأرض العارية المحاصرة بين كسور الصخور يتضاءل فى نفسه الشعور بالعالم الخارجى رويداً رويداً ويستجمع كل قوته ويوجه كل فكره الى مسألة المصير والمآل وماوراء الحياة الحاضرة. ولقد تفتحت فى نفس «رينان» أزاهير من التفكير غامضة مثل المحيط الهادر الساخر الذى يضرب

شواطيء بريطانيا مهجورة مثل صخورها الصم الاوابد ونسم
أريج تلك الازاهير فى صفحات كتبه فلطف من شكوكيته
وجعلنا نستعذب كلماته ونعطف على افكاره عندما يتخونها المنطق
القوى والفكر السديد

هذه بعض وجوه الشبه بين هذين الرجلين الكبيرين . وهنالك
فروق جوهرية بينهما. قال أمرسن عن كارليل «علمه حقيقة يثقلك
بالشكر. ولكن لقنه نظرية يسخر منك بل ربما كال لك الشتم »
وهذا رأى كاتب كبير وناقد أديب ربطته بكارليل أواصر صدقة
ظلت متينة حتى توفاهما الله.وقد أصاب فيه الحقيقة وأجمل وصف
تلك الصفة العقلية التي امتاز بها «كارليل» وهي مصدر قوته وضعفه
وتلك الصفة هي شدة شغفه بالحقائق الواقعة وكراهيته للنظريات
أما «رينان» فلعله كان أشد كلفا بالنظريات من «كارليل» كان كارليل
يجعل النظرية حقيقة ملموسة فيستخرج من الفكرة عاطفة ومن
المبدأ شخصا ومن الفلسفة تاريخا بل كان يطلب الى الشعراء أن
يقتصروا على التغني بالحوادث التاريخية وبلغ به الاغراق فى ذلك
أن صرح مرة بان أهمية شكسبير فى نظره هى لانه كتب رواياته
التاريخية وأنه يكبره لانه يرى فيه أكفأ شاعر فى القدرة على
نظم تاريخ الجزر البريطانية شعرا ‹‹أما «رينان» فهو على نقيض ذلك
اذ كان ولوعا بأن يستنبط من الواقع الملموس نظرية وأن يخرج

من التاريخ بفكرة عامة . ومن ثم ميله الى التعميمات العريضة والنظريات الشاملة . وكان عندما يزن قيمة شعب من الشعوب يجعل الفكرة التي أوجدها هذا الشعب ميزته ومقياسه، وقد تركت هذه الصفة العقلية أثرها فى أسلوب «رينان» فعبثا تبحث فيه عن حرارة « كارليل» وقوته وبراعة تصويره الفائقة المنقطعة النظير فى الادب الحديث وعن تلك الصور العجيبة التى لاترى لها مثيلا الا فى شكسبير ، وأسلوب «رينان» رقيق ناعم الى حد الهيف واستعاراته ليست فى غاية الاحكام والجلاء ، وقد أصاب الناقد القدير جيل لمتر عندما قال فى مقاله الممتع الفكه عن «رينان» هو « فنان ولكن أسلوبه أقل الاساليب تصويرا» ، اما صوره التاريخية فان الكاتب لايحاول ان يبارى بها ريشة الرسام وحسبه أن يصف حياتها الداخلية ونوازعها الخفية ، وصيغ الاعتدال وتحاشى المبالغة والتأكيد كثيرة فى كتاباته مما يدل على بعده عن التعصب وشدة اعتقاده بان الحق شيء نسبي ولاتلمح فى كتاباته أثر التهويل ولا تسمع صدى تلك الصرخات العالية التى جعلت جماعة من النقاد يشبهون « كارليل» بالنبي ارميا صاحب المراثي المشهوره

ولعل الفرق بين أسلوب « كارليل» وأسلوب «رينان» كالفرق بين الجلال والجمال ، فان أسلوب كارليل قوى جليل ينحدر انحدار الأتى فى صخبه وأسلوب «رينان» جميل طلى ينساب فى لين ورفق

كالعيون الجارية فهو اسلوب ملائم لهمسات الوحى الداخلى معبر عن لغة الضمير العاكف على نفسه يروى لنا احلامه عن الحياة والوجود ومشاعره الغامضة الخفية إزاء هذا الكون الغريب ولرينان روايات فلسفية ألبس فيها الافكار ثوب الاشخاص. ولكن هذه الروايات نفسها تدل على سعة الفكر وازدحام الخواطر وتنم فى نفس الوقت على ضعف القوة التصويرية والبراعة الدراماتيكية لان هؤلاء الاشخاص ليسوا اشخاصاً من لحم ودم وانما هم اشخاص خياليون يجرى فى عروقهم أثير غير محسوس ويلمح القارئ أثر ذلك فى هذه المحاورات فان رينان لم يرسم ملامح هؤلاء الاشخاص المتحاورين ولم يصف ملابسهم ولهجتهم فى الحديث ومكان حوارهم

وقد تركت الروح العامية التى سادت فى القرن التاسع عشر أثراً عميقا فى نفس رينان على حين كان كارليل يقاومها ويسخر برجالها وكراهة كارليل لدارون والدارونية معروفة ، وقد أثرت الروح العلمية على تصور رينان للتاريخ ووجهت فيه النظرة الكونية العلمية للاشياء على النظرة النفسيه الفنية وأفسحت السبيل لتلك السخرية الباسمة التى غلبت على رينان وصارت طبعا مألوفا ملازماله حتى عندما يتناول الكتابة فى أخطر المباحث وأقدس الاشياء مما كان يثير عليه سخط ذوى القلوب الجادة الكريمة والنفوس.

الصالحة الورعة اذ كان يؤلمهم ويجرح احساساتهم الشريفة أن يتناول «رينان» هذه المسائل التى كلفت الانسانية غزير الدموع وزكى الدماء وجشمتها الجهود المضنى وجرعتها مضض التضحية ومرارة الحرمان بسخرية الهازىء وابتسامة المتشكك . وان لكل انسان نصيبه من النظرة الكونية العلمية وقسطه من النظرة النفسية الفنية وان كان يتفاوت النصيب ويختلف القسط حسب المزاج الشخصى ، وفى ملابسات الحياة حوادث شخصية تجعلنا فى بعض الاحيان نحصر تفكيرنا كله فى شخص بعينه وذلك عند ما تستولى علينا عاطفة الهيام بمحبوب أو الشوق الى صديق أو الأسف والتوجع لفقد عزيز فنوجه أفكارنا كلها الى صوبه ونرى فى عالمه الصغير مالا نراه فى العالم الكبير بل يصير اهتمامنا بذلك الشخص أشد من اهتمامنا بظواهر الطبيعة وعجائب الكون . وقد أجاد الاستاذ العقاد وصف هذه الحالة النفسية فى فى قصيدة له غزلية رائعة بقوله

وإن رياض الأرض ليست تسرنى

بشىء ولمح منك يفعم خاطري

وأحسن المتنبي وصف هذه الحالة فى قوله يرثى جدته

وما انسدت الدنيا عليّ لضيقها

ولكن طرفاً لا أراك به أعمى

وألمها الشريف الرضى في قوله يرثى صديقه أبا اسحق الصابى:

ضاقت على الأرض بعدك كلها
وتركت أضيقها على بلادى

فهذه هى النظرة النفسية فى أقصى درجاتها . وتغلب علينا النظرة الكونية فى أبسط مظاهرها عند مانبحر فى سفينة ثم نديرالطرف حولنا فنرى السماء فى زرقتها والبحر فى امتداده وعظمته والشمس فى جلالها وفى الليل تنتثر النجوم التى لانستطيع عدّها وتزين السماء فنحس بضؤولة الانسان وتفاهة مساعيه الى جانب عظم الكون وأبديته والنظرة الفنية تغلب على المؤرخ الذى ينفق عمره ويوقف جهده للبحث عن الحقائق البشرية ويعد ثورات البشر أكبر الحوادث ويعتبر انقلابات النظم وسقوط الدول وقيام الحضارات هى كل مافى الوجود وتغلب كذلك على المفكر الاخلاقى الذى لايفتأ يصوب الطرف ويصعده فى آفاق النفس الانسانية يستقرى حوافزها المتسربة وأوجالها الخفية أو الشاعر الذى يفيض شعوره على الأشياء . وتغلب النظرة الكونية على العالم الجيولوجي الذى ينظر فى تاريخ الانسانية فى مدى الملايين من السنين والعالم الفلكى الذى يجيل طرفه بين الكواكب التى لاتعد . وقد كان «رينان» يتردد بين النظرتين وتتوالى على نفسه الحالتان وهذا هو السر فى سخريته الباسمة لان

السخرية متوقفة على طريقة النظر الى الاشياء . فأنت اذا نظرت الى النمال من منظار مكبر لم تمالك عن الابتسام . كذلك اذا نظرت الى الحياة البشرية من بعيد تضاءلت فى ناظرك الجهود البشرية وهانت عليك الآمال العزيزة وأشرفت على البشر اشراف جلفر الرحالة على سكان « ليليبت » ووجدت الحياة فرصة سانحة للتسلى والسخرية ومن هنا ابتسامة السخرية التى لم تبرح ثغر رينان. وهذه النظرة الكونية تطفىء الحماسة وتغرى بالاعتدال لان المتأمل يرى تنازع الارادات القوية والارادات الضعيفة وضلالات العقول ومصارع الشهوات ويرى كل جيل من أجيال الانسانية المتلاحقة يعمل لغاية غير التى ينشدها ويحقق غرضا ليس له به سابق علم . ومن هنا جاء التسامح الرينانى والاعتدال الفلسفى وعدم اطمئنان رينان لاهل الشغب والتشدد والصلابة وهذا ماحداه على أن يسخر من القديس بولس تلك السخرية الرقيقة المهذبة التى لا أملك أن أقاوم الاغراء على نقلها هنا وهو قوله فى كتاب « ضد المسيح » « قضى القدر الغيور أننا فى مسائل كثيرة من المسائل التى تثير أشد اهتمامنا لا نستطيع أن نخرج من الظل المظلم حيث تقيم الخرافه ولنكرر هنا مرة أخرى أن مسألة موت الرسولين بطرس وبولس لا يفصل فيها سوى الفروض . سيما موت بولس فانه ملفوف فى الغموض . وبعض العبارات الواردة فى سفر الرؤيا المكتوب

في آخر سنة ٦٨ أو أوائل سنة ٦٩ ميلادية تجعلنا نميل الى التفكير في أن مؤلف هذا الكتاب كان يعتقد أن بولس كان حيا عند كتابة كتابه ومن المستحيل أن تكون خاتمة الرسول العظيم مجهولة كل الجهل وقد يكون طاح به المرض أو أهلكه الغرق أو قضى نحبه فى حادثة أخرى أثناء الرحلة الغربية المعزوة اليه فى بعض النصوص ، ولما لم يكن حوله أحد من تلامذته النابهين لذلك ستظل تفاصيل موته مجهولة وان كانت قد أتمتها الخرافه، وفى الحق أن فى فكرة الموت الغامض يمضى بالرسول الصخاب ما تستروح به نفوسنا . وبودنا أن نتصور بولس قد غابه الشك وأدركه الغرق مهجورا قد خانه رفقاؤه واحتواه اليأس ، ويسرنا أن نعلم أن الحيرة قد عادت اليه مرة ثانيه ، وأن ارتيابنا الرقيق ليثأر لنفسه بعض الثأر لو أن أشد الرجال تشددا فى عقيدته مات مسلوب الامل على شاطىء أحد الانهار أو فى أحد طرق أسبانيا وهو يقول لقد أخطأت »

ولرينان مثل سائر كبار المؤرخين وعظماء الكتاب فلسفة حياة مستقرة خلف كتاباته يستشهدها فى تناول مشكلات الحياة والكون والاجتماع . وفلسفة رينان مستمدة من هجل بل هي فلسفة هجل ملطفة مصقولة منقولة من عالم الفلسفة والتجريد الى عالم الادب والفن ولكنها مقتبسة من هجل فى المعنى الذي يقال

فيه أن الدور التى نبتنيها مقتبسة من الغابات والمحاجر

وكان رينان يجمع الى فلسفته الهجلية شدة الايمان بالعلم .
ولكن فكرته عن العلم لم تخل من نقص فقد كان يلحق بالعلم
العلوم الطبيعية وعلوم اللغة والتاريخ وكأنما أراد القدرأن يسخرفى
دوره من «رينان» الذى كان لايؤمن بفكرةخشية أن تخدعه.فقد
آمن «رينان» بأن التاريخ علم وجارى فى ذلك أهل عصره وغاب
عن علم «رينان» أن التاريخ ليس علما كسائر العلوم اذ ليس فى
وسعنا أن نتنبأ فيه بنتائج الاشياء بطريقة غير قابلة للخطأ كما نتنبأ
فى التجارب الكيميائيةوالعمليات الطبيةومقاييس الفلكودورات
النجوم . والفرق الجوهرى بين العلم والتاريخ هوأن العلم يرى سمات
الاشياء وأشكال الموجودات . أما التاريخ فانهلايعلق أهمية كبرى
على هذه السمات إلاإذافسرها،ونفذ الى باطنها. والتاريخ يعمل على
احياءالموتى وتصويرأفكارهموأهوائهم،وهذايقوم على الانشاءوالخلق
فالتاريخ من هذه الوجهة أشبه بقصيدة عامرة مادتها متعارفة
وقصتهامشهورة.أوهو ملحمة حوادثهامروية وأشخاصهامعلومون
أماالعلم الوضعى فليس هذا شأنه وانما قصاراهأن يبحث عن الروابط
والصلات بين الاشياء،وهو لايحاول أن ينفذالى ماوراءذلك وحسبهأن
يتناول الاشياء بالمقياس والميزان،ويدير عليها التجربة والملاحظة
ويطبق قانون السببية،وعندما يهتدى إلى طريقة تنسيقها فصائل

وطبقات ينفض يده وينتهى عمله ، فهو لا يبحث عن أصل الحركة ولا عما يحدث داخل الذرات على حين أن التاريخ يحاول الوصول الى دخيلة الذرات الانسانية ، ولا يكتفى بتقرير فتوحات الاسكندر وأفاعيل «أتيلا» ومواقف صلاح الدين ، وانما يحاول أن يقرأ فكرهم ويتغلغل الى صميم شعورهم . وعلى المؤرخ أن ينقل نفسه بالخيال العاطف والبديهة الموفقة مكان هؤلاء الابطال ويقف من الحياة موقفهم لينظر الاشياء بعيونهم ويحس باحساسهم وهذا جميل فى ذاته وبراعة فنية غير منكورة ولكن على شريطة ألا تموه علينا حقيقتها والا ننتزع لها الصفة العلمية غصبا ونكره العلم على قبولها اكراها وقد أحسن المسيو «بولان» فى قوله عن «رينان» فى كتاب «أدب السخرية» ، «رينان الذى فهم سخرية الفضيلة لم يستوف التفكير فى سخرية العلم وربما كانت العلة فى ذلك أن فضيلة رينان أكبر من علمه»

وكان رينان يرى أن قانون العلم الاعلى هو السببية التى تنافر كل معجزة وتنكر كل شذوذ عن سنن الطبيعة . وقد أوسع هذا الاعتقاد شقة الخلاف بينه وبين رجال الدين وجعله يشتبك معهم فى جملة مواقع . ولكن رينان مع هذا الانكار ظل محتفظا بروح الدين من حيث هو الاحساس بوحدة الاشياء والايمان بالمثل الاعلى على أن الشك كان أقوى أثرا فى نفسه من أن يترك له عقيدة سليمة

وفكرة غير مزعزعة. ففكرة الأثر المعجزات التى رددها فى هذه المحاورات وعدها من يقينياته الثوابت ووقف الى جانبها طويلا لم تسلم من شكه فقد كتب فى كتابه «أوراقا منثورة» يقول (ان آلاف الاعوام ليست شيئا فى لانهائية الزمن . وما نسميه زمانا متطاولا يتقاصر اذا قيس الى دهور ابعد مدى. والكيميائى عند ما يقوم بتجربة ويحدد لها سنة كاملة فانه لا يلمس جهازه فى غضونها وكل ما يحدث فى انابيقه يخضع لقوانين اللاتنبهى المطلقة ولكن هذا يتفق تمام الاتفاق مع تدخل ارادة فى مبدأ الامر وتدخل ارادة فى نهاية التجربة. وخلال هذه الفترات تتولد فى الجهاز ملايين الميكروبات ولو أن هذه الميكروبات رزقت العقل لساغ لها أن تقول بأن هذه الدنيا لا تسيطر عليها أية ارادة . وسيصدق قولها بالنسبة لدائرة تجاربها ولكنها ستخطىء من حيث النظر الى الكون فى جملته الشاملة) وكتب فى موضع آخر من نفس الكتاب «إن ما نسميه زمنا لانهائيا ربما كان فترة بين معجزتين . وهذا هو كل ما نستطيع قوله عن المحجب وراء الزائل المحدود . فليكن مذهبنا ألا ننكر شيئا ولا نؤمل شيئا وأن نؤمل فى كل شىء»

وكان رينان يذهب الى أن الانسان يرى فى أعماق نفسه صورة المثل الاعلى مرتسمة . وهذا التصور للمثل الاعلى المستقر فى صميم الانسان هو ما يسميه رينان «الله» ولكن هل الله هذا مجرد ادراك

تصوري في العقل البشري أم هو حقيقة أيضا ؟ رينان لا يقطع في ذلك برأي وتراه يتردد بازاء ذلك بين لا ـ ونعم . وهو يرى أن هنالك خالقا يدخل المثل الاعلى في الواقعي . ولكننا لا نعرف عنه شيئا أكثر من أنه كائن . فهل يوجد شيء وراء الطبيعة ؟ نعم يوجد وما الطبيعة سوى مظهر . وما الانسان الا صورة . وهنالك الابدي الذي له الدوام . كما يقول المسلمون . وهو الاب الذي خرج منه الجميع واليه يعودون والمثل الاعلى عند « رينان » هو « الفكرة » كما يتحدث عنها « هجل » فهي الروح المتطوره في هذا الكون . ومن ثم كان الدين الحقيقي هو معرفة الدنيا وفهم الانسانية وكانت الطبيعة والتاريخ أدل على المقدس من صيغ اللاهوت وطقوس الدين

ورينان لا يمل من ترديد فكرة أن في أعماق الكون احساسا غامضا ولكنه على ما به من غموض هو المحرك للدنيا وهو أشبه بالله « موجود بالقوة » ولكنه سيوجد « بالفعل » وفكرة الواجب قائمة على أن ننفذ مشيئته . والعمل الذي تدأب من أجله الانسانية سيتم عاجلا أو آجلا فان أمامه فسحة الابد . وسيتحقق المثل الاعلى في النهاية وينضج الشعور العام . والافراد زائلون وليس لهم نصيب من الخلود إلا بمقدار ما أدوا من خدمات للكمال فهل نحن مخدوعون ؟ نعم . ولكن هذا الخداع منطو على معنى ؛ لان الطبيعة تستغلنا لغاية تريدها وتعمل على خداعنا لتحقيق تلك الغاية . والفضيلة ذاتها ضرب

من خداع الطبيعة. والشر هو الثورة على الطبيعة ورفض أوامرها واذا أبعدنا النظر وجدنا أن خداع الطبيعة ليس خداعا مطلقا لان الدنيا متجهة الى الاحساس بنفسها أكثر فأكثر والانسان خالد في «الله» ومسألة الزمان والمكان تتلاشى في المطلق . وفي «الله» تحيا كل الارواح. وحاول رينان أن يهدىء حيرته باليقين والحب كما في قوله «أيها الاب السماوي ! لست أدرى ما الذى خبأته لنا . وهذا اليقين الذى شئت ألا تمحوه من قلوبنا هل هو عزاء ألهمت قلوبنا اياه لكى نحتمل شقوة وجودنا ؟ وهل القنوط هو الحق ، وهل الحقيقة محزنة ؟ لقد شئت الا يكون جواب جلى على هذه الشكوك حتى لا يفقد الاعتقاد في الخير جزاءه وحتى لا تقوم الفضيلة على التقدير والحساب فبوركت في خفائك ودمت لحفظ الحرية التامة لقلوبنا »

واذا كان الله غير ظاهر فانه سيظهر . سيظهر في الطبيعة وفي التاريخ والعلم سيحقق الله . وسيجعل الكون بالعلم على مقدار من الشعور أتم وأشمل حيث تمتزج كل المشاعر. والعلماء هم الذين يعينون على خلق هذا العصر . ورينان يرى قداسة العلماء ويحلم بسيادتهم المطلقة . وهذا منشأ رأيه عن الارستقراطية وحملته على الديموقراطية لان فيها القضاء على التفوق العلمي والفني. وتصور رينان عصراً يتسلح فيه العلماء بقوة العلم ودقيق مخترعاته ويخضعون

القطيع الانسانى لامرتهم ويذيقون من يخرج عليهم النكال ويصلونه النار الحامية . وعلى الانسان ألا يتريث فى أن يضحى بنفسه اذا علم ان فى هذه التضحية خيراً للعلم ونفعا للاجيال المقبلة .

وهذه الافكار وأمثالها هى فلسفة هجل فى الاسلوب الرينانى على أن رينان لم يقل هذه الافكار بلهجة الواثق لأن الشك كان عنده فريضة ادبيه وحلية فنية ، وكان يناقض نفسه من الحين الى الحين ، ويتردد بين نعم ولا ، ويوقف فيوض القلب باحكام العقل ، ويلطف الحماسة بالسخرية ، ويرى أنه ربما لا يكون هنالك شئ بعد كل ذلك ، وهذا هو السر فى ان رينان كان يدخل الفكاهة فى مواطن الجد ، ويمزج الفلسفة بالادب . وحرص رينان على ان يجتذب الجمهور ويترضاه فاستزاد من السخرية والفكاهة واستكثر من الالاعيب اللفظية ليروع ويعجب ويفتن ويخلب ويرقص على كل حبل ويتغنى بكل لحن . ورينان على تناقضه وشكه حافل بالافكار مزدحم النفس بالاحساسات ولكنه لا يتخذ فى تفكيره خطة واضحة ولا يلون أفكاره بلون حاد ، وانما ينفلت بين خفى الظلال ومبهم الالوان

وتأثر رينان بفلسفة هجل والتزامه هذا الموقف الفكرى مالا به الى نزعة فكرية من النزعات التى اشتهرت فى القرن التاسع عشر «وهى الدلتانتزم » وخطة انصار هذا المذهب هي رفض الاستمساك بالافكار وتجنب الاستعماق فى فهم الاشياء وانما

مطلب صاحب هذا المذهب هو المتعة والتسلى ، فهو لايعادي مذهبا من المذاهب ولا تضيق أخلاقه بخطة من الخطط ، بل هو يعطف على كل شيء من بعيد عطفا افلاطونيا لانه يعتقد ان لكل شيء مايبرر وجوده فى هذا الكون الذى تجتمع فيه المتناقضات فهو يسلم بكل المعتقدات والمذاهب لا على انها حقائق بل لانها تعبر عن حالات للروح يستطيع ان يتذوقها ويستمتع بها وقد كان رينان يرى فى نفس سخافات « نيرون » متعة للاستطلاع ومنفذا للفكاهة والتسلى . وليس هذا الموقف فى وسع كل انسان لأنه يستلزم الشك المصفى والفن المهذب وهو نتيجة لازمة للحركة الرومانتية لان الوقوف على أفكار الامم فى مختلف العصور وتأمل احلام الكون التى صاغتها أخيلة الشعوب مما يؤدى الى هذا الموقف ، وقد كانت نفس رينان مسرحا لهذه النزعة ولم تخل الروح الدينية المستقرة فى اعماق رينان من أثرها فى تكييف هذه النزعة اذ جعلت رينان يميل الى دراسة الاديان فركع خياله ساجدا فى مواقف جمة واستنشق جملة مباخر وكرر توسلات مختلفة وصلوات متباينة وألم بافراح الاديان ومسراتها وشجونها واحزانها وآب من هذه الرحلة يبشر بالتسامح والاعتدال ويدعو الى المصافاة بين الاديان ؛ ويرى ان محاولة اقتلاع أصول دين من الاديان معناها القضاء على سائر الاديان

وقد قضى رينان حياة طاهرة نقية أشبه بحياة القديسين

الأبرار ؛ ولم يرد على أحد من شاتميه ومنتقصى فضله ، ولم يتملق أمته فلم ينغمس فى اطراء فرنسا ، ذلك الاطراء الاجوف الذي أولع به بعض الكتاب الفرنسيين . و بعد الحرب السبعينية وهزيمتها لم يضع وقته فى اراقة الدموع وندب الحظ والحض على الانتقام بل عمد الى شرح حقيقة الموقف لامته وتبصيرها الاخطاء التى جرت عليها الويلات . وكان يكره الجدل فى محادثته كما يكرهه فى كتاباته ويميل الى الاتفاق مع محادثه وتجنب المعارضة ويرى مهزلة الحياة بقلب عاطف ولكنه لا يأخذها مأخذ الجد ولذا عاب على بطله « مرقس اورلياس » صرامته وسخر بالرسول « بولس » لفرط تعصبه . وكانت رحلته الدنيوية سعيدة مكالة بالنجاح أزاهيرها المتفاوحة أكثر من أشواكها الدامية ؛ وقد أحبته النساء الثلاث اللواتى يهم الانسان حبهن وهن شقيقته وزوجته وابنته . وقد لاقى منيته فى هدوء جدير بحكيم مثله فكان يقول فى ساعته الاخيرة « إن الموت هو قانون الطبيعة فلنخضع له صابرين » وقد روى عنه (ادمون دى جونكور) فى يومياته حادثة لاتخلو من تصوير صادق لاخلاقه وقد حاول رينان أن يشكك فيها ولكن ما عرف عن ادمون دى جونكور من الامانة فى الرواية وتحرى الدقة فى التصوير يجعلنا نصدقه ونبسط العذر لرينان لاضطراره الى التشكيك فى الرواية وسأنقلها هنا

موجزة تجافيا عن الاطالة قال دى جونكور « ذهبت لتناول الغداء في « البربانت » يوم ٦ سبتمبر سنة ١٨٧٠ فرأيت رينان على المائدة الكبرى فى القاعة الحمراء يطالع فى صحيفة ويشير اشارات بذراعيه تدل على اليأس . وجاء سنت فكتور ونفتزر ودى مسنيل وبرتلو . وغيرهم وجلسنا جميعاً نتناول الغداء وجرى بنا الحديث الى ذكر الهزيمة الكبرى والعجز عن المقاومة وعدم كفاية رجال الدفاع الوطنى ولعنا الهمجية البروسية فقال أحد الحاضرين « أن الاسلحة التى تستلزم دقة فى الاستعمال لاتلائم مزاج الفرنسيين . وجنودنا يميلون الى اطلاق النار بسرعة ثم اشهار الحراب عقب ذلك واذا أردتهم على غير هذا التووا فى يدك وشلت حركتهم فجعل الفرد آلة لا يصلح لهم على حين إنه سر تفوق البروسيين »

فرفع « رينان » رأسه من الطبق وانفجر قائلا « فى كل شىء درسته هالنى تفوق الذكاء والجهد الالمانى . فليس غريباً تفوقهم فى فن الحرب الذى هو على ضعته فن معقد . نعم ياسادة أن الالمان شعب راق »

فصحنا به من جميع النواحي فجعل يقول وقد ازداد تحمسه «نعم أن الالمان أرقى منا بكثير لأن الكاثوليكية تعطل المدارك وتوقف تقدم العقل على حين أن البروتستانتية تنمي القوى وتشحذ المدارك».

ثم حول « برتلو » الحديث الى موضوع آخر ولكن رينان ظل مسترسلا فى شرح نظريته لجيرانه وحشد البراهين على صحتها فاعترضه دى مسنل بهذه الملحوظة ، « أما من جهة الشعور بالاستقلال عند مزارعي الالمان فانا أستطيع أن أقول لك إننى كنت اركلهم ليجمعوا لى الحيوانات المصادة عند تجولى للصيد فى برلين » .

فقال رينان « إنى أوثر المزارعين الذين يركلهم الانسان على هؤلاء المزارعين الذين جعلهم حق التصويت العام سادة لنا » .

وشرع « برتلو » يشرح لنا نبوءاته غير السارة ؛ وعند ما أنهى شرحه قلت « إذن قضى علينا ولم يبق لنا إلا أن نعد جيلا للانتقام وهنا صاح بى رينان ونهض من مقعده وقد أحمر وجهه » لا لا لا تقل الانتقام . فلتهلك فرنسا ولتهلك بلادنا ، فأن هناك شيئاً أسمى من الوطن ، وهو « الواجب والعقل » وأخذ يتلو آيات من الكتاب المقدس بصوت جد مرتفع .

بقيت مسألة لا أحب ان أختم الكلام عن رينان دون الاشارة اليها وهى مسألة علاقته بالساميين ، وكانت بعض فروع هذه المسألة مثارا للخلاف وبابا لحملة من الحملات السخيفة الهوجاء التى برع فيها بعض المعاصرين ولكن الذى يعرف صراحة رينان وسمو فلسفته لا تغضبه الآراء التى غض بها من فضل الساميين ووصفهم فيها بما لم يحبوا أن يوصفوا به . وليس من الانصاف فى الكثير ولا فى القليل أن نطلب

الى كل باحث نزيه أن يتملق مشاعرنا ويترضى زهونا وستبقى أراء رينان قائمة حتى يمحصها ناقد من طراز رينان فى غزارة العلم وقوة الفكر والتضلع من الفلسفة فيثبتها أو ينفيها . وقد حلل رينان العقلية السامية فى كتاب يعد ذخيرة من ذخائر الادب وطرفة من طرف البحث ويجدر بقراء الادب العربى دراسته واقتناؤه . وأن الثناء لقليل على المجهود الكبير الذى بذله فقيد الادب والصحافة المرحوم فرح أنطون فى نشر الفلسفة الرينانية فى ربوع الشرق .

المحاورات الفلسفية

الاهداء

— الى المسيو مرسلان برتلو —

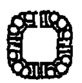
ساءلت نفسي غير مرة حيال أفكار معينة فى هذه الصفحات كنا نتجاذت عنها الحديث سويا آلاف المرات أهي أفكارى أم أفكارك . فقدت امتزجت أفكارنا فى الثلاثين سنة الاخيرة وتأكدت علاقتنا الفكرية الصميمة حتى صار من الصعب على أن أميز أفكارى من أفكارك . بل ما أشبه محاولة ذلك بمحاولة تقسيم أعضاء الطفل بين الام والاب . ففي بعض الأوقات كانت جرثومة الفكرة لك ، وكانت تنميتها من عملى وفى وقت آخر كانت الجرثومة لى ولكنك أنت الذى جعلتها مثمرة . فكل شيء صالح استطعت أن أقوله عن الكون فى كليته الشاملة أطلب اعتبارك لك. وأنا من ناحية أخرى أدعى لى جانبا فى تكوين روحك الفلسفية ولا أطلب أكثر من ذلك .

كنت فى الثامنة عشرة وكان عمرى اثنين وعشرين سنة عند مابدأنا نفكر معا وكنا حينذاك مانحن عليه اليوم وشبوبيتنا الجادة التى عنت لها آمال سرعان ما خابت تلتها أعوام النضوج المفعمة بالاحزان . فرأينا فرنسا ترتكس فى حمأة الضعة والحماقة والجهالة عقابا لها على اخطاء لم ترتكبها . وجيلنا الذى يخدعه أولاده الاكبر منا سنا

له الحق فى الشكوى . وكل جيل مدين لجيل التالى بالنظام الاجتماعى المؤسس الذى ورثه عن الاجيال السابقة ، وهؤلاء الذين كان عليهم أن يورثونا وطنا حرا بعد أن أحدثوا انفجار فبراير القاتل مهدوا السبيل على الرغم منا لكارثة ديسمبر وعند ما وطنا نفوسنا على أن تتبع فرنسا فى الطريق الذى انساقت فيه هوى كل شىء من جديد وأرغمنا على الانتظار خمس سنوات قبل أن يروق الساسة المتنفجين الذين جروا علينا الويلات أن يعترفوا بعجزهم

فهل نرى أياما أحسن ؟ وهل تكون شيخوختنا مثل أواخر أيام الشاعر العبرانى الذى جمع فى سرور ، الحصاد الذى زرعه بدموعه ؟ أنت ترجو ذلك وأتمنى أن تكون على صواب ! لقد ارتكبت أخطاء كثيرة حتى لم تبق أخطاء لترتكب . وإذا كانت فرنسا تنوى أن تستأنف لعب دورها الشريف فى العطف والحرية واحترام الجميع فان العالم سيحبها وستكون هزيمتها أنفس من أشد الانتصارات تألقا إذا ضربت للعالم مثل الأمة الحكيمة بلا قادة ، والذكية بلا سادة . وبأى سرور وارتياح . اذن أمحو كل تنبؤاتى المحزنة ! وكم سأكون مسرورا فى الرجوع عنها ! وأرى فى نفس الوقت أن عملنا هين . لنضاعف مجهودنا ، وأنا أشعر فى نفسى بشىء من مرونة الشباب وحدته . وأريد أن أبدأ شيئاً من جديد . ولا بد أن يكون المسيو « هيجو » ومدام « ساند » قد

أقنعا الدنيا بان العبقرية لاتعرف الشيخوخة . ويجب أن يرغم تين وأبوت وفلو بير الناقد على التسليم بان أحسن ما كتبوا حتى الآن لم يكن سوى مجرد محاولات . ويجب أن يكتشف كلود برنارد و بلبياني بعد أسراراً جديدة عن الحياة ، وأنت نفسك يجب أن تبده الناس بتركيب جديد . وعليك أن تجدد الهجوم على الجوهر الفرد لترى هل هو غير قابل للعدم كما يقولون يجب على كل منا أن يفوق نفسه حتى يقال عنا إن الفرنسيين لايزالون أبناء آبائهم . ومنذ ثمانين سنة خلال حكم الارهاب كتب كوندورسيه كتابه مختصر تقدم العقل البشرى وهو فى مخبأه فى شارع سرفا ندونى ينتظر الموت



مقدمة المؤلف

إن المحاورات التى تكون الجزء الأهم من هذا الكتاب[1] كتبت فى فرساى أثناء شهر مايو سنة ١٨٧١ وكنت برحت باريس آخر أبريل وقد جرحت قلبى الضلالات التى شاهدتها هنالك واقتنعت بانه ليس فى مستطاعى أن أقوم بأية خدمة للعقل . ولما كنت محروما من كتبى مشردا عن مجال عملى قضيت ساعات هذا الفراغ الذى أكرهت عليه فى الانثناء الى نفسى وتدبيج موجز لاعتقاداتى الفلسفية وبدا لى أن كتابتها على شكل محاورات أوفى بالغرض لخلوها من الجزم ولأنها تسمح للانسان بان يتناول الوجوه المختلفة للمسألة دون أن تضطره الى الانتهاء الى نتيجة ، وأنا الآن أقل مما كنت فى كل أدوار حياتى شعوراً بالجرأة على الكلام بلهجة الواثق فى هذه المسائل ، والقطع الثلاث التى أقدمها هنا للجمهور غايتها تصوير سلسلة من الافكار قد تطورت تطورا منطقيا دون أن ترمى الى أن تقرر فى الذهن رأيا خاصاً ولا أن تبشر بمعتقد معين ، والمسائل التى تناولتها هى من تلك المسائل التى لا يفتأ الانسان يفكر فيها حتى وهو يعرف حق المعرفة بأنها لا تحل أبداً . والغرض

(١) الكتاب الأصلى يشمل هذه المحاورات وشذرات أخرى فى الفلسفة وقد اختصرت على ترجمة المحاورات « المعرب »

الذى قصدت اليه هو حفز القارئ على التفكير وإثارة الحاسة الفلسفية فيه فى بعض الأوقات بمبالغات خاصة . ولا يتطلب مجد الانسان أن يجاوب على هذه المسائل إجابة قاطعة ، وانما يستلزم أن لا يكون غير مكترث بها . ولم يمنح أحد القدرة على سبر أعماق الهاوية ،ولكن العقل الذى لا يهفو به الاغراء الى أن يلقى ببصره من الحين الى الحين صوب أعماقها، عقل قريب الغور ضحضاح .

وإنى قبل أن أؤمل أن تفهم هذه الملاحظات على وجهها لأعلم علما ليس بالظن، سوء التأويل الذى يستهدف له الانسان عندما يتناول المسائل الفلسفية والدينية .وإنى مستسلم مقدما الى أن الناس ستنسب الي مباشرة الآراء التى يصرح بها المتحاورون حتى عندما يناقض بعض هذه الآراء البعض الآخر . وانما أكتب للاذكياء والمستنيرين . وهؤلاء سيسلمون التسليم كله بأننى لاصلة لى بأشخاصى . وأنه لا يجب أن تلقى على مسئولية الآراء التى يبسطونها وكل واحد من هؤلاء الاشخاص يمثل فى درجات متفاوتة من التأكد والاحتمال والتوهم أوجه الفكر الحر المتتالية . وليس أحد منهم اسما مستعارا قد اخترته ليعبر عن عواطفي جريا على الطريقة التى يسير عليها كتاب المحاورات

ولسبب أقوى أعارض ضد التأويل الذى يريد أن يرى تحت هذه الاسماء الموضوعة فلاسفة أو علماء من المعاصرين .والمتحاورون

فى هذه المحاورات هم محض تجريدات. وهم يمثلون مواقف فكرية موجودة أو ممكنة لا أشخاصاً حقيقيين وليست هذه مثل المحادثات التى أولع القدماء بتصور وقوعها بين أشخاص من الموتى أو من الأحياء. وإنما هي محاورات هادئة اعتادت أن تتجه اليها أفكارى عندما كنت أرخى لها العنان لتسرح طليقة حرة. ولقد انقضى عصر المذاهب المطلقة فهل يقال إذن أن الانسان قد كف عن البحث وراء نتيجة منطقية فى حلقة حوادث الكون ؟ لا . وإنما قديماً كان لكل إنسان مذهبه الفلسفي . كان من أجل هـذا المذهب يحيي ويموت . أما الآن فنحن ننتقل على التوالى بكل المذاهب . بل نفعل ماهو خير من ذلك ، إذ نستوعبها جميعها مرة واحدة.

وعندما أعدت القراءة بعد انقضاء خمس سنوات فى هذه التأثرات التى قامت بنفسى فى أوقات محزنة وجدتها حزينة مرة. وتريثت أول الامر فى طبعها . ولقد عانيت من عصر الشدة الذى مرّ بنا كابوساً . وكان على الانسان اذا أراد أن يعبـد الله فى ذلك الوقت أن يرسل النظر الى أقصى الابعاد أو أن يصعده كل مصعد. وكان الله الصالح هو الآله المغلوب على أمره. وعبثاً استغاث به الناس. كنا لانرى منه سوى (آله الجيوش) الذى لايلين ولا يتأثر الا برقة آداب فرسان الالمان، ولا يهزه سوى تفوق القنابل البروسية غير المنكور .وكنت قد فقدت رؤية الآله الارق الذى التقيت به

منذ خمس عشرة سنة فى طريق الى الجليل وتحدثت معه أثناء الطريق أحاديث عذبة مروحة[1] . ولقد قالت لى سيدة نابهة كنت أعرتها الاصول (لاتقدم هذه الاوراق للطبع فهى ترمى القلوب بحاصب من الثلج)

وقد زاد فى مخاوفى الموقف السياسى الذى جرت اليه الحوادث فرنسا . لأنه لاجل أن تفكر حرا يجب أن تكون متأكداً كل التأكد من أن ماتقدمه للطبع لايجر الى سابقة . وفى الحكومة التى يهيمن على شؤونها ملك فى يده أزمة القوة المسلحة يكون للانسان ضمانة أوفى إذ يعرف الانسان أن المجتمع فى صيانة من أخطاء نفسه ، أما عندما يكون المجتمع غير معتمد الا على نفسه فإننا يملكنا الخوف إذ نخشى ان يهز التنفس القوى البنيان المتداعى الذى يحتمي به الناس . والمجتمع المتمركزة قوة دفاعه فى نفسه ، عليه احتياطات ليراعيها أكثر من المجتمع المسلح من الخارج ، ومن ثم كانت الجمهوريات — ولو أنها فى الغالب أكثر ملاءمة لحرية الفكر من الحكومات الملكية — مضرة بحرية الفكر من طريق غير مباشر لشدة الحيطة التى يلجأ اليها الفيلسوف خشية أن يسيء ذوو العقول الضيقة فهم مقاصده

وبعد أن روأت فى الامر واستنصحت ذوى الرأى وحذفت بعض الافكار الشاذة ، عقدت العزم على أن أقدم للقراء الالباء هذه

---

(١) لم تنقد قلوبنا داخلنا عند ما كان يجاذبنا الحديث.

الصفحات المكتوبة لهم . أما الذين لم يتعودوا معالجة مثل هذه الافكار فلا بأس عليهم من مثل هذه السبحات وسيرونها خلوا من المعنى . اما هؤلاء الذين تعودوا البحوث الفلسفية فانهم سرعان مايعرفون إن غرضى الوحيد كان اثارة التفكير فى هذه المسائل التى لايمكن أن نمر بهاسكوتا دون أن نسيئ الى الحق ، وحرصى على أن أكون واضحا وأن أبث فى أفكارى قوة وأزيدها حدة كان يجعلنى فى بعض الاوقات ألجأ الى طريقة مشابهة للطريقة التى اتبعها «جان بول رختر» فى القطعة المشهورة حيث أراد أن يثير فى النفس استفظاع الالحاد فجعل المسيح يبشر به. والوسيلة الصادقة الفعل فى اظهار أهمية فكرة هى ان نلغى هذه الفكرة ونرى ماذا تصير اليه الدنيا بدونها . وآمل ان اطبق يوما باستفاضة وتوسع هذه الطريقة فى الشرح الفلسفي فى كتاب اسميه «فروض» ارسم فيه سبعة او ثمانية مذاهب للدنيا ينقص كل منها عامل رئيسى. وبهذه الوسيلة يصير الدور الذى يلعبه هذا العامل فى نظام الاشياء واضحا جليا بحيث تدركه اضعف البصائر

والاكثرية الكبرى من الناس ينقسمون تلقاء هذه المسائل الى قسمين . ويظهر لى ان الحق على مسافة متساوية من كليهما، ويقول الارثوذكس من كل الطوائف « إن ماتبحث عنه موجود منذ زمان طويل » اما العالم الاثباتى (وهو وحده موضع الخطر) والحاكم

السياسي والملحد فيقولون « إن ما تبحث عنه لا يمكن وجوده.»
حقيقة أنه لا يمكن أن يعرف الانسان صيغة اللانهائي الحي. ولكنه
أيضا لا يستطيع إنسان أن يقنع الانسانية بأنه لافائدة من النزوع الى
معرفة الكل التي هي جزء منه، والذى يسوقها على الرغم منها. ونحن
نعرف غزارة تلك الصور البديعة التي حاول فيها رافائيل على قباب
لوجيا، وميشيل انجلو على سقوف كنيسة سيستينو، أن يصورا بدء
الخليقة، ولكن من الذى لا يشوقه وجودها ؟ والفلسفة تابعة لليوم
والساعة، فقد تكون محاولة حمقاء تافهة سخيفة، وقد تكون الشيء
الجدى الوحيد . ومن خطل الرأى أن يكب عليها الانسان كل
الاكباب إذ يستفرغ جهده وراء شيء لا ينى ينصل منه. وكذلك
لا ينبغي للانسان أن يعرض عنها إذ يدل بذلك على عامية العاطفة وقلة
سماحة العقل. وللكون غاية مثالية وهو يخدم غرضا مقدسا، وليس
الكون محض تفاعل بغير جدوى خاتمته النهائية لا شيء ، وإن غاية
الانسانية هي أن يسود العقل، والعمل على نصرته هو واجب الانسانيه.
وعبثا تحاول ردها عن هذه المقاصد الساميه. وعندما تخرج الانسانية
من حظيرة الادراك المادى الضيق ستغتنم فرصة هذه الحرية لتركب
رأسها وتثبت بذلك ان اللذة الوضيعة لا تشفى عليلها »

ومن ثم كان كل تفكير ينقل الانسان خارج دائرة الأثرة
المحصورة، مفيدا وصالحا للعقل، مهما كانت الوجهة التي ينتحيها هذا

التفكير . وإن تجديف ذوى العقول الكبيرة لأحب إلى الله من توسلات العامى الجاف المغرضة . لان التجديف وإن كان يدل على نظر الى الاشياء ناقص، هو من بعض الوجوه معارضة عادلة. فى حين أن الانانية ليس فيها مثقال ذرة من الحق . وهناك ملاحظة واحدة هامة ويجب أن أصر عليها . وهى أن هذه التفكيرات ليس لها تطبيق عملى وهى فى كل الاحوال مثل الشك النظرى عند «ديكارت» تفترض وجود قوانين سابقة يأخذ بها الناس أنفسهم وخير ضمين لها الطبيعة الخيّرة . وان حلاوة الشمائل وحسن النية للجميع واحترام الكل وحب الناس والحدب عليهم والعطف العام الشامل والتودد لكل المخلوقات لهى القانون الاكيد الراسخ الذى لايخدع. فكيف تأتاف مثل هذه المشاعر مع سيادة الطبيعة الشديدة الوطأة، والاعتقاد بسلطان العقل المطلق ؟ لست أدرى ، ولكن هذا أمر قليل الاهمية ، والخير لايقوم على نظرية ونحن نستطيع أن نحب الناس مع استمساكنا بفلسفة ارستقراطية . وقد لانضمر لهم الحب ونحن نباهى بمبادىء الديموقراطيــة . واذا تعمقنا فى النظر وجدنا أنه ليست المساواة هى الخالقــة لحلاوة الشمائل وعــذوبة الأخلاق. بل إن المساواة الحاسدة — على الضد من ذلك — هى التى توجد الزهد والغلظة . وإن أحسن قاعــدة للاصلاح هى التسليم بنظام مشمول بالعناية لكل شىء فيه مكانه وطبقته ونفعه وضرره

معا . وليست الناس متساوية.وليست الشعوب متساوية.فالزنجى مثلا خلق ليخدم الاشياء العظيمة التى يريدها الابيض ويتصورها ولا يتبع ذلك أن العبودية المرزولة فى أمريكا كانت حقا . فليست الناس كلها لها حقوق فحسب . بل ان الكائنات قاطبة لها حقوق . وأحط طبقات الانسان أرق من الحيوان بكثير . وعلينا واجبات حيال الحيوان . وليس يكفى أن لا نسيء الى أى كائن بل يجب أن نعمل لخيرهم وأن ندللهم ونواسيهم ونهون عليهم جفوة الطبيعة التى لامناص منها . ومادمنا واثقين من هذه المبادىء فلنسترسل فى دعة وترفق مع أحلامنا الشريرة . ولنقدمها للطبع مادام من أسلم نفسه للجمهور مدينا له بكل جوانب فكره . وإذا أحزنت هذه الافكار أحدا فليس علينا سوى أن نقول له قاله الخورى الصالح لسامعيه لما أسال عبراتهم وهو يعظهم عن «الهوى» يا «أولادى» لاتفرطوا فى البكاء الى هذا الحد . لقد كان ذلك منذ زمن بعيد . «وربما لم يكن صحيحا»

والفكاهة الطلية تصلح كل فلسفة . ولست أعرف فلسفة فرحة، ولكن الطبيعة أبدا فى ريعان الشباب ولا تفتر عن الابتسام الينا . ولا تضيق بها المذاهب بل هى تخرج من أشد المآزق حروجة، وعند أول وهلة ترى أن الانسانية فى عصرنا قد انساقت فى طريق لامخرج منه . فان المعتقدات القديمة التى لابس الانسان فى ظلها

الفضائل قد تصدعت جوانبها، ولم يحل محلها شيء ويكفينا نحن ذوى العقول المثقفه ماتوجده المثالية مكان هذه المعتقدات. لاننا لانزال نعمل تحت تأثير العادات القديمة. ونحن نشبه الحيوانات التي ينتزع منها علماء وظائف الاعضاء الذهن وتبقى برغم ذلك تؤدى وظائف خاصة حيوية بمجرد قوة المادة. ولكن هذه الحركات الغريزية يعتريها الوهن على مر الزمن. وسيرى الكثيرون إن عملنا الخير لنرضى به الله — اذا كان موجودا — صيغة خالية من المعنى. ونحن نعيش على خيال الخيال فعلى ماذا يعيش بعدنا الناس؛ شيء وحيد لايتسرب اليه الشك وهو أن الانسانية تستمد من القلب كل مايعوزها لصياغة الاحلام ونسج الاوهام لتقوم بواجبها وتتم ماقسم لها. ولم يخذلها ذلك فى الماضى. وهى لاتفشل فيه فى المستقبل.

وأخشى فى بعض الأوقات أن يلومنى الناس لانى قد استسلمت للهو الفراغ الاثيم لاسترسالى مع أوهام لاضرر منها، على حين كانت بلادى تعانى أشد محنة قاستها. وأجاوب على ذلك بما أجبت به من قبل غير مرة. وهو أننى كنت على الدوام طوع أمر أمتى: ففى سنة ١٨٦٩ لما دعانى عدد كثير من الناخبين لارشح نفسى لعضوية مجلس النواب قمت تلبية لهذه الدعوة بتضحيات شخصية كثيرة. وكان الشيء الوحيد الذى لم أستطع أن أقهر نفسى عليه هو أن أقو

كلمة أكثر أو أقل مما أعتقد أنه لائق بأن يقال . ومنذ ذلك
الوقت كررت أنني لا يسعني الا النزول على إرادة مواطنى فى كل
المهمات التي يريدون اناطتها بي . وكل شفاعة فى مثل هذه الحالات
أعتبرها فى غير محلها ، والمسئوليات السياسية فى مثل هذه الاوقات
المضطربة لايجب أن يسعي وراءها ولا أن ترفض . فالذين يجرون
وراءها حمقى خفاف الاحلام ، والذين يرفضونها مؤثرين الراحة
والابتعاد عن أخطارها يجب ان نعتبرهم أنانيين ، وأنا هنا أرفع
الصوت بانه لو كانت بلادى قد وكلت الي واجبا من الواجبات لكنت
قمت به بكل شجاعة ، ولكنت استنفدت فيه كل ما أوتيت من
همة وقدرة على العمل

المحاورة الاولى

موءكدات

فيلاليت — اتيفرون — ايدوكس

اتيفرون وايدوكس وفيلاليت ثلاثة فلاسفة من المدرسة التى مبادئها الاساسية عبادة المثل الاعلى ، وإنكار مافوق الطبيعة، والتزام الاستخبار التجريبى للواقع . وقد برحوا باريس فى غرة شهر مايو سنة ١٨٧١ وجعلوا يتمشون فى ناحية منعزلة من حديقة فرساى وقد بهظهم الحزن لماحل بديارهم من حيف الحوادث وتحامل النكبات. وكان ايدوكس يحمل معه نسخة من كتاب « محادثات فيما بعد الطبيعة » لمابرانش . ثم جلسوا وشرع ايدوكس يقرأ فى المقالة الثالثة عشر :

« ما أجمل وأجل فكرة العناية الالهيــة التى أخذتها عنك ياتيودور ! وما أخصبها وأكثر نورها ! وما أصلحها لكم أفواه الفئة السادرة وحزب المنابذين للدين ! ولست أعرف مبدأ مايتضمن نتائج أجدى صفقة على الدين والاخلاق منها . أى ضوء تسكب وأى مشكلات تحسم !! وليس ثمة من مظهر من المظاهر التى يناقض بعضها بعضا فى نظام الطبيعــة وتدبير العنـاية يدل على أن هنالك تناقضاً فى السبب الذى أنتجه . بل هى على النقيض براهين

كثيرة جلية على أحكام تصرفه ، والشرور التي تحيق بنا وكل ما يعترض سبيلنا من أسباب التخبط والتشويش يتفق اتفاقا تاما مع حكمة المهيمن وصلاحه وعدالته ، وإن صنع الله ليتم بطرق تحمل طابع صفاته . وإني لمكبر لسير العناية التي تحوطنا ذلك ، السير المبدع الفائق »

«تيودور — إني أتلمح من كلامك إنك يا ارست قد أحسنت الاصغاء الى الفكرة التي شرحتها لك وتقبلتها ، إذ لا تزال متأثرا بها الى الآن . ولكن هل وسعتها فهما وأحطت بدقائقها خبرا ؟ لا يزال يخامرني في ذلك الشك . ومن الصعب عليّ الاعتقاد بان وقتا قصيرا كهذا كافيا لك لتكون قد تعمقت في درسها وفهمتها على الوجه الصحيح . ورجائي أن تبسط لنا بعض تفكيراتك لأتخلص من الشكوك وأشعر بالاقتناع . وأنه كلما كانت الفكرة أجزل نفعا وأوفر ثمرة ، تفاقم الخطر الناجم من عدم فهمها فهما واضحا تاما .»

«ارستس — أوافقك ياتيودور على ذلك . ولكن ما شرحته لنا واضح المعالم والنهج الذي جريت عليه في الابانة عن العناية يتكافأ كل التكافؤ مع فكرة الموجود الذي لا تحد عظمته ، ومع كل ما تلحظه حولنا من الاحداث ، حتى إني لاشعر تأكدي من صدقها .

ايدوكس

ينقص تلك الفلسفه شيء قليل جدا فى بعض الاوقات ليحملنا على قبولها قبولا كاملا . وإن فكرة ملبرانش القائلة « بأن الله لايعمل بمشيئات خاصة » يمكن قبولها بارتياح واعتبارها محصولا نهائيا لفكرتنا عن العدالة الالهية »

فيلاليت

من المؤكد أن معرفة مابرانش للعالم لم تكن تامة إذا قيست الى ما أمكننا الوصول اليه . ولكنه تمكن مع ذلك من أن يخرج منها بنتائج حكيمة

اتيفرون

اذا أمسكت عن الكلام فى طائفة متناقضاته التى أعفيه من اللوم فيها لتقديرى أحوال عصره وفقدان ذلك العصر روح الاعتدال ولعلمى بما سببه له مركزه الدينى من الارتباك ، فانى لا يمكننى الموافقة بلامعارضة على أفكار عن العالم كافة لم تنضجها الروية . وان كل ما يعلمه الانسان انما هو نتيجة تجارب تمت قبل يومه وخارج دائرته ولكنها انتهت اليه بالسماع أو بالمطالعة : وعندما تتناول تلك الحقائق بالاستقراء والتعميم نحصل بقدر ما على أفكار صحيحة خاصة بأجزاء من الكون . أقول بقدر ما ، لأنه من أجل أن نؤكد

أى شىء عن أى جزء من الكون بصورة مطلقة لا سبيل للشك فيها ، يلزم أن نكون قد ألممنا بالعدد اللانهائى من الحقائق التى يتكون منها هذا الشىء . وهذا عمل من وراء طوق العقل البشرى ، وتشبه معرفتنا من هذه الوجهة خريطة تخطيطية مفصلة مرسومة بمقدار من الدقه ، إن قليلا وإن كثيراً ، وإن أحسن الخرائط اتقانا وإبداعا لبعيدة عن أن تكون مطابقة لنفس الصقع ، ولكنها مع ذلك تعطينا فكرة عنه . بل إن أقل الخرائط دقة وعناية ، ليست عديمة الفائدة

وكلما اتسعت معارفنا وترامت حدودها فقدت مقداراً من التثبت والتأكيد يوازى هذا التمرد والاتساع ، فماذا يكون إذن إذا زعمت نظريتنا إنها تشمل الدنيا برمتها ؟ يذكرنى موقفنا فى تلك الحالة بالتاثير الذى قام بنفسى إحدى الليالى فى إيالة« بسكا [1] » وكان هناك مصباح ينير الرمل والحصباء الى مسافة خطوات قليلة ، ووراء هذه الحلقة الصغيرة من النور غياهب الظلماء متراكبة ولو حاولت أن أضمن وجود سهل أو جبل أو نهراً وصخرة على مسيرة كيلو متر من المكان ، لكان ضمانى هذا دعوى لا يقرها العقل. واننا لننحو هذا النحو فى تفكيرنا إذا حاولنا أن نحكم على العالم كافة من البقعة التى نقيم فيها .

---

(١) فى الجزء الاوسط من شرقى بلاد المجر

فيلاليت

إذا ربأنا بأنفسنا عن أن نكون فى مرتبة الحيوانات التى لاتشغل بالها إلا بالغرض الذاتى من حواسها وجشع شهواتها ، فإننا مرغمون على أن نكوّن مما نراه فكرة عما لانراه

اتيفرون

ليكن ذلك كذلك ، ولكن ينبغى لنا أن لاننسى أن آراء كهذه لاتزيد على ما سماه القدماء « عقائد الفلاسفة » وإن شكا على لاينى يرفرف فوق هذا الضرب من المباحث الفكرية ولا يبرح الشك يقفو أثر كل مسألة متحامية الحل . أليس تركيبنا النفسى فى صميمه وهو العين التى نبصر بها الواقع — عرضة لان يغش ويخدع ؟ ألسنا ألاعيب لوهم لامفر منه ؛ من المحال أن نجيب على سؤال كهذا دون التورط فى القياس الفاسد

فيلاليت

ليس من عادتى أن أقف مدفعا مصدودا إزاء هذا الشك الذى أفضى بكثير من الفلاسفة الى طريق يضل سالكه. وبما أننا عندما نستعمل آلة العقل استعمالا عمليا ونعتبرها مقياساً صادقا ثابتا للواقع ، لاتقع فى الخطأ، فاننا مضطرون الى أن نستنبط من ذلك أن هذا العقل مقياس صالح يصح الاستناد عليه والأخذ به ، وتثبت

صحة الميزان إذا غيرنا المقادير الموزونة وحصلنا على نتائج ثابته

ايدوكس

أضف الى ذلك أن الانسانيه ليست وحدة كما تصورها « ديكارت » وكما تصورها «كانت» نفسه . وإننا نعرف انسانيات عدة . أشهرها نوعان رئيسيان . ذلك النوع الذى تناسل فى آسيا الغربية والنوع الذى انتشر وتزايد فى آسيا الشرقية. وأقصد الصين . وهذه الانسانيات المتنوعه — ولو أنها غير متساوية فى الانتشار — قد صيغت نفسياتها على مثال واحد تقريبا . ولسنا نعدو الحق اذا قلنا إن الانسانيات الأخرى الشائعة فى فسيح المكان لاتختلف عنا اختلافا جوهريا من ناحية تصورات العقل والاخلاق الاساسية . ولقد يكون الاختلاف بيننا وبينهم أقل مما يختلفه رجل صينى أو أندمانى (١)

فيلاليت

هذه أوقات محزنة . وهانحن نسائل أنفسنا عشرين مرة فى اليوم هل للحياة قيمة وقد هوى كل ما كنا نحب من شاهقه . سعيد الرجل الذى لايزال يعتقد فى مدينة الله الخالدة ، والذى يمكنه أن يتلقى الموت ببشاشة وسلام كما تلقاه القديس « اجستن »

أثناء حصار «هبون» . أتريد أن نستعرض أفكارنا العامة عن الله والكون ؟ الرأى عندنا أن نعاود التفكير فى هذه المسائل كل عشر سنوات لاجل أن نعمل لانفسنا مايشبه الميزانية للمقادير التى استبدلت منذ التصفية الاخيرة

ايدوكس واتيفرون

بكل ارتياح وقبول

فيلاليت

أما عن نفسى فمن عادتى تقسيم أفكارى فى هذا الموضوع الى ثلاثة أقسام . القسم الاول ، وهو لسوء الحظ أضيقها حدودا ، هو قسم المؤكدات . والقسم الثانى قسم المظنونات . والقسم الثالث قسم المتخيلات . وسنمسك يا اتيفرون عن الإشارة الى الاخير إذا شئت ولو انه ربما كان الاعز علينا جميعا .

اتيفرون

الأحلام صالحة ومفيدة على شريطة أن نأخذها على أنها أحلام . ألا تتذكر نظرية «هجل» العظيمة « إنه من اللازم أن نفهم الغير مفهوم كما هو »

ايدوكس

يمكن فيلاليت أن يتقدم الينا الآن بشرح المؤكدات من أفكاره عن العالم بكليته

فيلاليت

عند ما أفكر فى العالم بكليته أرى شيئين مؤكدين إلى حد إنى إذا لم أوفق فى الكشف عنهما لكل من ألم بمبادىء العلم فسبب ذلك قصور منى فى التعبير عنهما . الأول هو أننا عندما نتناول بالتحليل كل مايحدث فى الكون داخل حدود المشاهدة لانرى أثرا لكائنات معروفة أسمى من الإنسان تعمل بمشيئات خفية كما يزعم ملبرانش

(ايدوكس)

وضح لنا طريقة فهمك لهذه الكلمات

فيلاليب

لو لم يكن الانسان فى هـذا الكوكب السيار الذى نسكنه لكان شكله مغايراً كل المغايرة لما هو عليه الآن . أو — بلفظ آخر — أن الانسان يؤثر فى تطور الاشياء بأعتباره سبباً من الأسباب اما خارج هذا الكوكب فليس للانسان من تأثير . وذلك لأن كوكبنا لا يؤثر فى العالم تأثيراً كبيرا إلا من ناحية الجاذبية والانسان لم يغير قوة الانجذاب وليس فى وسعه أن يغيرها . ولكن مع ذلك فانه لما كان أقل عمل ذرى ينعكس أثره فى الكل . ولما كان الانسان هو السبب العرضى على أقل تقدير لعدد من الاعمال الذرية لذلك

يمكننا أن نقول بأن الانسان يؤثر فى الكل بمقدار يتناسب مع الفرق الدقيق بين الدنيا وهى آهلة بالانسان وبين ماتكون عليه وهى مهجورة خالية منه . ويمكننا أن نجزم بأنه حتى الحيوانات تؤثر فى العالم باعتبارها سببا . لأن الكوكب الذى لاتسكنه سوى الحيوانات يتخذ سطحه مظهرا مرده الى ارادة الحيوانات الحرة مخالفا للشكل الآلى الصرف الذى لاتلمح فيه اثر اي عمل من أعمال الارادة

ومن هنا نستخلص انه اذا كان ثمت مخلوقات تعمل فى الكون عمل الأنسان على سطح كوكبه أو بشكل أبلغ فى التأثير لكنا أدركناها ببعض الطرق ؛ وإذا جىء بمخلوق عاقل من دنيا أخرى الى دنيانا هذه فانه يدرك قبل أن يصادف أى انسان أن هذا الكوكب تسكنه مخلوقات عاقلة حرة مثله ماهرة فى ابتكار الوسائل لبلوغ المآرب ، وأن منظر طريق أو رؤية حائط قائم أو مشاهدة صف من الاشجار كافية لتؤكد ذلك تأكيداً لامساغ للشك فيه . كما روى عن أحد القدماء أنه رسا على جزيرة ورأى بها أشكالا هندسية مخطوطة على الرمل فاستدل على انه « لابد من وجود ناس هنا » . ولكن منظر العالم لايكفل لنا الوصول الى مثل هذا الاستدلال . حقيقة ان كل شىء فى الوجود تام النظام والاتزان . ولكن لايوجد فى ثنايا الحوادث قصد خفى . وكل الكوائن

تتبع سنناعامة ولم يثبت مرة واحدة الشذوذ عنها لغرض خاص

وان اظهار الحدب على الرجل الفاضل أو العطف على القضية العادلة لاحدى الحالات التى كان يمكن أن يكون من الطبيعى فيها الخروج عن حدود تلك القوانين: ولكن شيئا مثل هذا لم يعرف

ومن خصائص الطبيعة عدم الاحساس المطلق وتساميهافوق منازع الاخلاق أولا اخلاقيتها العالية اذا اجترأت على هذا القول وأن لاأخلاقية التاريخ والظلم الكامن فى الجماعات البشرية ليسا أقل من ذلك فتيلا . ومهما عملنا فانه سيكون من المستحيل على الدوام أن يكون المجتمع عادلا . وأنا أعلم أن أغلب الناس يعتقدون بوجود « آلهة » تحمى حمى البراءة وتنتقم للجريمة وأنها عرضة للاستفزاز والترقيق . وانما كان ذلك كذلك لانهم لما كانوا لم يتشبعوا بالروح العلمية فليست عندهم القدرة التحليلية ولاقوة الملاحظة الكافية لادراك أنه لايحدث فى مجرى الحوادث تدخل مخلوقات اسمى ينم على ارادة . ولو وقع مثل هذا التدخل المزعوم لثبت، ولكنه لم يقم دليل على وجود أثر لقوة عاقلة فى سير الحوادث وأحوال الدنيا المتشعبة الكثيرة وان عالم الملاحظة من السعة وترامى الاطراف بحيث لو كان وقع فيه مثل هذا التدخل لشاهده أحد الناس

ايدوكس

أتنكر تأثير الدعاء والتوسل ؟

فيلاليت

لا انكر قيمة الدعاء باعتباره ترتيلا صوفيا ، وكل مايعرب عن اعجاب أوسرور أو حب هو دعاء فى هذا المعنى، ولكن الدعاء المغرض — الذى يتوسل به المخلوق المحدود الى أن يقيم ارادته محل ارادة الكائن غير المحدود — اقول مثل هذا الدعاء انكره كل الانكار واعتبره خطأ فى حق الله صادراً عن نية حسنة بلاريب . «اوزوريس يرتشى بقطعة صغيرة من الكعك » . والناس تحاول ان ترشى الله بالهدايا الصغيرة . وفى عصور الفطرة عند ما كان يصيب السرطان احد الابطال كانت الناس تظن ان الله ينتقمه . ومن ثم كانوا يقدمون للأله طعاما جديدا راجين بذلك انه قد يفضله على لحم المريض ويتركه ينجو بنفسه ، والرجل المجرد من الروح العلمية يعتقد ان هنالك كائنات تتدخل مباشرة فى شؤون الدنيا ويتوهم انه بمناجاة هذه الكائنات يستطيع ان يستجلب معونتهم فى تحقيق رغباته ولكنه لم يثبت مرة واحدة ان دعاءً كهذا أسفر عن مثل هذه النتيجة

ولقد كان الفلاسفة اليونانيون يعرفون ذلك حق المعرفة . قال أحد هؤلاء الفلاسفة — وهو دياجوراس من مدينة ميلوس —

لما رأى القرابين التى تقدم بها الملاحون فى معبد بوسيدون قال : « الناس يحصون الذين نجوا ولكنهم لايحصون من غرق وقد قدم قربانا كغيره » . وهذا كلام جيد ، وفى أمثال هذه المسائل لايحصى الناس الا من ساعفهم الحظ ولكنهم لاينظرون الى الذين لم يحققوا هذه الاوهام التى نحاول نسجها حول نفوسنا . وهذا هو تفسير المعجزات كافة ، والدعاء هو فى الحقيقة التماس معجزة لان من يدعو الله انما يلتمس أن تتغير من أجل مصلحته الخاصة السنن التى تجرى عليها الطبيعة . والمريض الذى يدعو للشفاء عندما يكون من المحتم موته وفاقا لنظام الاشياء الطبيعية انما يرجو معجزة ، وهو يدعو لينقلب المرض القاتل المميت عن طبيعته والفلاحون الذين يقيمون الحفلات للاستسقاء أو لايقاف الامطار يطلبون معجزة أيضاً فهم يدعون لسقوط الامطار فى وقت يقتضى نظام الطبيعة عدم سقوطها . وهذا يتطلب انقلابا كليا ظاهر القصد فى الجو . وأن الامطار الكثيفة التى تهطل فى شهر يونيو متوقفة على الحالة التى طرأت على الثلاجات فى القطب الشمالى فى شهر مايو . وفى حالة كهذه يقتضى أن يكون الله الذى جرت فى علمه الادعية التى ستوجه اليه قبل شهر من ارسالها قد ألقى باله الى حركات الثلاجات وعاق تكوينها . أو أن يكون قد منع الثلوج المقبلة نحو الجنوب من

أن تؤثر تأثيرها المألوف فى تبريد الابخرة وتكثيفها وماذا يكون ذلك إذا لم يكن معجزة ؟

ولأجل تدعيم أساس الاعتقاد بهذه المسألة يلزم أن يكون فى مستطاعنا أن نجرب حالات كان فيها توجيه الدعاء باعثاً على تسيير الحوادث فى مجرى مخالف لما كانت تسلكه لو انقطع الدعاء. ولكن برهانا كهذا لم يحاوله أحد بعد ولن يحاول. وما زالت الناس تدعو منذ بدء الدنيا. ومع ذلك لم يوفقوا فى اثبات أن دعوة من الدعوات أو نذراً من النذور جاء بالغاية المبتغاة. ولقد عثر المنقبون حديثا بثلاثة آلاف مخطوطة بونية كلها مشابه بعضها البعض. وكل واحدة منها يؤكد لنا فيها أحد اتقياء القرطاجنيين أن تانيث وبعل هامون قد سمعا دعاءه وأنه رفع هذه المخطوطة شاهدا ناطقاً. ولا بأس فى ذلك الى هنا. ولكن تانيث وبعل هامون آلهة زائفة. ومامن أحد يقول الآن انها كانت تستطيع اغداق النعم. فالثلاثة آلاف مخطوطة اذن شاهدة بالتورط فى الخطأ وليست الابنية التى شيدت للنذور والادعية بدليل على صدق النذور واستجابة الادعية. ولو أجمعت جمهرة الناس على الاعتقاد بأنهم جربوا تأثير الدعاء لما أثبت ذلك شيئا. ولقد كان هؤلاء القرطاجنيون يودون أن يحملونا على الاعتقاد بأنهم جربوا نفس

هـذا التأثير. وكانوا واهمـين فى ذلك لان آلهتهم كانت بلا حول ولاقوة كما يعلم الآن جميع الناس .

ومن اليسير أن نفصل فى هذه المسألة بالعودة الى الاحصائيات ففى أوقات الجدب تقيم نحو ثلاثين أو أربعين أبريشية فى مقاطعة واحدة الحفلات رجاء الاستسقاء . وتمسك عن ذلك نحو عشرين أو ثلاثين أبريشية . وبحفظ بيانات عن ذلك حفظا جيداً وبمشاهدة حالات كثيرة يكون من السهل التأكد إن كان لهذه الحفلات أى تأثير وان كانت الابريشيات التى قامت بهـا كان نصيبها من الرعاية أوفر من نصيب غيرها . ومما اذا كانت كمية الامطار التى غمرتها مناسبة لحماستها الدينية

ويمكن تكرير العملية بأسـاليب عدة مختلفة . يمكن مثلا أن نهيء حجرتين بهما أطفال مصـابة بمرض واحد مع اصطناع الحيطة فى عزلهم حتى لايتسرب الغش الى النظام. ونسمح للمتدينين أن يضعوا فى احدى الحجرتين بعض التمـائم التى يقال أنها تملك القدرة على اتيان الخوارق . وتترك الحجرة الاخرى عاطلة من ذلك وننظر فيما يسفر عنه هذا الترتيب من فرق محس قابل للتقدير . ولـكن أحدا لم يحاول هذه التجربة ويوافقنى عقلاء الناس بأجمعهم على أنه اذا أجريت هذه التجربة فانه من السهل اليسير التكهن بنتيجتها

ويلاحظ فى حوادث التاريخ عدم وجود أثر لتدخـل قوة

فوق الطبيعة . وان أتقى الامم وأشدها تعلقا بأهداب الدين يهزمها في الغالب أمم أقل منها تقوى واستمساكا بعروة الدين دون أن يكون في وسعنا أن نقيم الحجة على أن عناية اسمى قد صادفت فئة غير الفئة الاقوى . وأن مايدعونه « إله الجيوش » يأخذ على الدوام جانب الامة التي تملك أحسن مدفعية وتستعمل أمهر قادة .

والطبيعة في تصرفاتها وتدبيراتها تظهر عدم الاكتراث المطلق للخير والشر والشمس تشرق على السواء للخير والشرير

ولا يوجد ثمت حقيقة واحدة تكرهنا على الاعتقاد بوجود كائنات محدودة خارجة عن الانسانية قادرة على العمل فوق كوكبنا ولست أرمي من وراء ذلك الى أن انكر انكارا مطلقا وجود كائنات عاقلة عاملة خارج نطاق الانسانية ، وانما جل ما أقصده هو أن كائنات كهذه لاتؤثر بعملها في كوكبنا ولا في حركة النجوم . لانه لو كان هناك تأثير خاص معين كهذا لكنا أدركناه وانتهينا الى حقيقته . ولنفرض أن طائفة من النمل انشأت جمهوريتها في مكان مهجور لا يطرقه أحد من البشر إلا مرتين أو ثلاث مرات في غضون قرن ولنفرض أن هذا النمل قادر على معرفة الطبيعة والوقوف على نواميسها ولكنه لا يستطيع أن يفسر مسألة هذا الكائن الضخم الذى يهدده بالسحق ، ففلسفة النمل الطبيعية في هذه الحال ستكون مماثلة لفلسفتنا ولكنه سيضطر الى تقرير ان السنن قابلة لأن تنقض

نقضا مبهما غريباً لمدة دقائق كل أربعين أو خمسين سنة عند مرور
كائن غريب هائل وقوة غامضة تعترض طريقه وتقلب كل شيء
ولو كان فى النمل فلاسفة لما خلطت قط بين مرور هذا الكائن وبين
هبوب عاصفة أو اندفاق ماء وغير ذلك من المظاهر الآلية المنزهة
عن القصد والتعمد ؛ وسيكون الانسان الذى يتصوره تصوراً
مشوبا بالغموض واللبس — فى نظره شديد الشبه بالله عند القدماء
فهو كائن أقوى من الانسان يتدخل من الحين الى الحين في شؤون
الأرض وأحوال الدنيا ، ولم يثبت يوما أن كائنا كهذا موجود
خارج عالم الانسانية . ولم تر الانسانية مظهرا يشابه المظهر
الذى توهمنا أن النمل شاهده فى الافتراض الذى فرضناه ، ولقد
كانت الانفجارات البركانية والزلازل والاوبئة تعتبر قديما حوادث من
هذا القبيل ، وأنها نذير غضب الله ، ولكن فى هذه الايام لا يعتقد
بذلك رجل حسن التثقيف ، وهذه الحوادث تعتبر الآن طبيعية ،
وليست هنالك أكاديمية من أكاديميات العلوم تقول أن من أسباب
ثورة بركان جوريلو أو هيكلا الجرائم التى يقترفها المكسيكيون
أو أهل ايسلنده ، وهناك بلاد أقل تمسكا بالاخلاق من أهل
ايسلنده ولا تعرف فيها الزلازل

ايدوكس

أهذا هو محصول فقهك ؟ أنه فقه معرق فى النفى الى حد غريب .

فيلاليت

تمهل قليلا ! لقد بينت لك انى اقبل فرضين فى الفقه واعتبرهما مؤكدين . فكما انى اعتقد اعتقادا جازما لايتسرب اليه الشك انه لا نزوة عارضة ولا ارادة خفية تتدخل فى نسيج الحوادث التى يتكون منها العالم فكذلك اعتقد انه من الواضح الوضوح كله ان للدنيا غاية تسعي اليها . وانها مثابرة باستمرار على القيام بعمل مبهم خفى . وهنالك شئ ينمو ويتطور بضرورة داخلية وبغريزة غير تنبهية وبطريقة مشابهة لحركة النبات الى الماء والهواء وللمجهود المندفع بلا روية الذى يبذله الجنين ليترك الرحم . اولتلك الضرورة الداخلية التى تهدى تقلبات الحشرات وترشد نشوءها وتكوينها والدنيا عاكفة على عمل شيء من الأشياء كما يقول القديس بولس «الخليقة كلها تئن وتتوجع وهي فى رحلة وانتقال» . والحافز الاكبر فى سير الدنيا وحركتها هو الالم المخلوق غير القانع الذى لايفتأ يتشوف الى النماء ولايقرله من أجل ذلك قرار . والظروف السمحة اللينة تولد الجمود فى حين ان الضغط والمقاومة هما بدء الحركه والضغط هو الذى يجعل الماء يرتفع ويرسم سيره . وبلوغ الفتاة ينشأ من بيضة نضجت للحياة وتطلعت اليها وكل شئ فى هذا الوجود من السمك النجمي المخمس الشكل الذى يهضم — ذلك التركيب العضوى المفرد الذى كان وجوده ممكنا بلا نزاع فى اول عصور الدنيا — الى أسمى

انواع الانسان يتطلع الى الوجود ويحاول ان يؤكد وجوده ويحرز
أكبر قسط منه. وكل شيء ممكن يريد ان يرى تحقيق كيانه .
فكل شعور غامض يعانى ويجاهد لينتفى عنه الغموض وليصير
أكثر شعورا واوضح وأجلى ، والعالم فى آلام تطوره الذى
لاينقطع يشبه القلب الكبير الفائض بالحب الواهن الغامض
فالجسم الكامل النظام يرمي الى تحقيق مثال ، وكلما نما يكتسب
اجزاءه المختلفة ويخلق لنفسه أعضاء بمجهود لا روية فيه ولا أناة
يمكن أن تتنبأ بتأثيراته من قبل ، وكل مثال يستمد من نبعته كل
ما يحسه من ناحية كماله الفردى ، وأى اختراع بشرى يصح أن
يقارن بالمصاصات التى زودبها نفسه الاخطبوط بفن عميق متغلغل
وما يصدق قوله عن المثال الحيوانى يلزم ان تقوله عن الوطن
والدين وعن كل حقيقة عضوية ، بل يلزم ان تقول نفس ذلك
القول عن الانسانية والكون بأكمله ، ونحن نحس بأن هناك
مجهودا عظيما لتحقيق غاية ولملاء مثال وبلوغ وحدة متزنة او ايجاد
شعور ووعى وان الشعور الكلى لايزال غامضا ملتبسا الى حد كبير
وهو لايفوق شعور المحار أو ذوات الارجل العديدة ولكنه مع
ذلك موجود ، والدنيا تتقدم الى الامام بغريزة لاتخطىء غرضها
وان مادية العلماء الآلية فى أواخر القرن الثامن عشر لتظهر لى
من أعظم الاغاليط التى ترتكب

اتيفرون

خذ حذرك لئلا تفضى بك وجهة بحثك هـذه المسألة الى الاقتراب من فلسفة الأسباب النهائية العتيقة . تلك الفلسفة الساذجة فى تفسيرها وشرحها

فيلاليت

لم تخطىء هذه الفلسفة الا فى الصورة ، وما قد ألحقته بنظام الـكونية والخلق يلزم ان يدرج الآن فى نظام التطور والنشوء البطىء ، والتلمود يقول« لعمل الملاقيط كانت الملاقيط لازمة تخلقها الله » . وهذا خطأ لأن الملاقيط صنعت تدريجا وبآلات تدرجت فى التقدم . وعلى هذا الاسلوب تم خلق الانسان والحيوانات والحياة وان مظاهر الشعور فى حالته الغامضة هي مكان الله المناسب . واكثر مايتجلى الله فى الحيوان والطفل وفى الرجـل من غمار الناس وفى الرجل العبقرى الذى هو ايضا حسب نوعه طفل واحد الناس ايضا، وأن الله هو عقل من لاعقل له ، وهو المحرك الخفى الذى يوجد الاشياء ويكونها تبعا لنواميس الجمال والاتزان وهو العدد والوزن والقياس الذى يجعل الدنيا متزنة أبدية

وأشد ما يزيدني ايمانا بهذا الرأى هو طائفـة الحقائق التى نقف فيها على خداع الطبيعـة للافراد وتغريرها بهم لغاية أسمى

منهم، ولنتأمل مثلا كل ما يتصل بمسألة التناسل، وكيف جعلتنا الطبيعة نشعر كل الشعور بالاهمية التى تعلقها على الاحتفاظ بآداب الفرد . فهى تحف هذا الكنز — هذا النبع لكل حياة — بضروب لاتحصى من الاحتياطات وهي لم تكتف بان تقعد به اللذة فحسب بل قد وكلت به الوانًا من الغرائز وصنوفا من العواطف المتناقضة كالحياء والاحتجاز والشهوانية والاستخزاء والرغبة، وذلك مثل امراس السفينة للشد والتوثيق والصد والمنع والاغراء . وهى تنزل أقسى العقوبات وأشدها نكرا بمن أسرف وسدر ، والطبيعة نفسها تشترط أن تكون المرأة عفيفة صائنة وألا يكون الرجل عفيفا الى مدى بعيد . ومن ثم فان طائفة من الاحكام المقررة تنهال على المرأة التي لا تصون عرضها فى حين أن الرجل غير العفيف لا يلحقه سوى رشاش من السخرية والاستهزاء . وعواطف مثل هذه عندما تكون متوشجة الاعراق شديدة التأبى تكون جزءا من الطبيعة نفسها . والطبيعة فى تدبيراتها ترمى الى غاية اخلاقية اكثر مما تنظر الى اشباع أنانية الفرد .

والرغبة هى المحرك الذى اتاحته العناية تعمل . وكل رغبة تنطوى على وهم . ولكن النظام الذى تجرى عليه الامور لا يشعرنا بفراغ الرغبة الا بعد ارتوائها . «وبوتوس» هو اقدم الآلهة ميلادا وسيظل كذلك . ومادة التلقيح فى النبات تجاهد بلباقة فى الولوج

الى البويضة حتى لكأنها تعلم قوانين الفراغ . وكل مطلب من مطالب الرغبة تنكشف لنا تفاهته عند ادراكه . ولم يشذ عن هذه التجربة شيء منذ اول العالم . ولكن برغم ذلك فان هذا لا يثني هؤلاء الذين يعرفون هذا حق المعرفة عن الجرى وراء الرغبة . وسيظل الاكليروس يبشرون بفلسفة الاعزب الذى لا تخدعه الاوهام وسيظل الناس يعترفون بصدق هذه الفلسفة . ولكنهم سيظلون مع ذلك يعدون وراء الرغبات فاى تناقض !

ان الطبيعة تريد تكاثر النوع وتلجأ الى آلاف الحيل لبلوغ هذا الغرض . والجم من اعمال الكائنات ليس نتيجة التقدير الذى يعود بالفائدة الذاتية . ولقد اركزت الطبيعة فى الحيوانات الدنية من عطف الامومة ما يكفى لحفظ نوعها . وقد منحت الانسان نصيبا من النزاهة يسمح له بالانتقال الى حياة اسمى . وان الفراشة القصيرة العمر تعيش ثلاث سنوات فى دور مابين النقف والتقرش وتنتهي حياتها فى اليوم الذى ينبت فيه جناحها . وهى فى خلال هذه الفترة القصيرة تتناسل وتبيض وتموت . وليس ثمت من غريزة بدون غرض . وعندما نرى فى الطبيعة البشرية آلاف الحقائق التى لا تفسرها اللذة ولا المصلحة تفسيرا كافيا يمكننا ان نستخلص فى غير تردد انها ادوات آلة اعدتها الطبيعة ولو ان غرض هذه الآلة من الصعب اكتناهه . والانسان يشبه العامل فى جوبلنز الذى

ينسج بطانة الوشى التى لا يعرف طريقتها ولا يرى غايتها. وانماهو يعمل لقاء فرنكات قليلة يتقاضاها فى اليوم . ونحن نعمل لاقل من ذلك . نعمل بوهم العمل الصالح فاى حيوان شريف الانسان ؟ وكيف يحسن حمل نيره ! وما اصدق وأعمق صورة الجحش فى بلاتين ،، « اعمل ايها الجحش كما كدحتُ فانه سينفعك »

ومن الواضح اننا مسخرون لخدمة غرض من الاغراض وأن الطبيعة تستخدمنا وهناك شىء يتم على حساب مانبذله من مجهود . واننا ألاعيب انانية اسمى تتبع غرضها بطريقنا. وان العالم لهو هذا الانانى العظيم الذى يجذبنا الى الشرك بأفظع أنواع الخداع. مرة باللذة التى يطالبنا بعد ذلك بان ندفعها مقدار معادلا من الالم. ومرة بجنة وهمية لا نرى فيها ظلا من الحق حالما نستقر فيها. وتارة بوهم الفضيلة الذى يحملنا على تضحية اوضح مصالحنا لغرض خارج عنا وبعيد عن دائرتنا. والطعم ظاهر ولكننا سنتناوله وسنعمل ذلك على الدوام

اتيفرون

ليس هذا عجيبا الى الحد الذى تتصوره، ولا يمكن وجود الدنيا الاعلى الغرار الذى وصفته ، ولو كانت الانسانية من الذكاء والفطنة بحيث يستطيع افرادها ان يستبينوا كل شيء لكان من المستحيل بقاؤها، بل كانت تموت فى جرثومتها ومن ثم لا توجد، وانك فى ذلك كأنك تتعجب من عدم وجود فقرى بدون قلب

فيلاليت

ولكن أشد مايثير دهشتي هو وجود كائن يقتضي تركيبه ان يعيش
لغرض خارج عن نفسه وان يضحي في بعض الاحيان شخصه في سبيل
هذا الغرض ، فوجود هذا الكائن هو مناط دهشتي وموضع تعجبي ،
وان فضيلة الانسان لاقوى دليل على وجود الله ، والكون في تصرفه
بالانسان يتراءى لنا كطاغية محتال ينزلنا على ارادته باساليب
مكيافليه ويدير الامور بحيث لا يفطن الى تلبيساته الا القليلون ،
لانها لو وقف عليها كل انسان لاستحال وجود الدنيا والطبيعة تحرص
على فضيلة الفرد ، واذا نظرنا من ناحية المصلحة الشخصية وجدنا ان
هذا وهم لان الفرد لا يستمد نفعا من فضيلته ، ولكن الطبيعة
مفتقرة الى فضيلة الفرد ، وقد احتالت لذلك بقانون الواجب أعظم
الهام واصدقه بل الالهام الفذ ، وان آكد فضيلة لهي الفضيلة القائمة على
الشك النظرى ، وليس ثمة في الحياة العملية من إنسان يخاطر بمائة
فرنك رجاء ان يكتسب مليونا باحتمال حياة مقبلة ، ولكن مع ذلك
فان كل إنسان يستسلم للموت او يعدل سلوكه تبعا لمثل هذا الاحتمال ،
والاصل في ذلك ان هناك ناحية في العقل الانساني لا تقتصر على
الوجه النظرى مثل سائر نواحيه بل تأخذ بمخانقنا وترغمنا ، وان
الطبيعة لتتعمد خداعنا لأجل غرض سام يسعي اليه الكون
وهذا الغرض خارج عنا .

والأكاذيب المباركة التى تلفقها الطبيعة لدراك غايتها وهى أدب الفرد تدهشنا لو حاولنا أن نحيط بتفاصيلها . وأن اعتقادات الدين الطبيعى — وكلها مشتقة من قانون الواجب — لتشبه شبكة توقعنا فى أسرها أوشراب الحب الذى يستغوينا .ولايجدى هنا النقد ولا الفلسفة النافية . وأننا نعتقد بالله ونؤمن به عند ما نكون فى أسعد حالة ، والدين للانسان كغريزة الأمومة للطيور — تضحية بغير بصيرة لغاية مجهولة ارادتها الطبيعة . وهذا شىء سخيف فى حد ذاته : ولكنه صالح لأن الطبيعة تريده . بل هو أيضا صادق وأقدس من كل شىء لأجل ذلك . وهناك سياسة مفكرة متجلية فى كل مظاهر الشعور الغامض أو الوجود اللاشعورى . وأن غرضا عظيما يتم بتفانى الانسان وتحريضك الانسان على ألا يتفانى فى هذا الغرض هو مثلما تدعو الطير ليترك بناء عشه أو ألا يتعهد صغاره . وفى ذلك مقدار ضئيل من الضرر . والانسان والطائر سيستمسكان بأساليبهما الأبدية ويحرصان على طرق عملهما لأن الطبيعة تتطلب هذا التشبث . وهناك عناية حكيمة قد احتاطت لتضمن هذا المقدار من الفضيلة اللازم لحفظ العالم

ايدوكس

لو كان هناك رجال فى هذه الدنيا يأخذون بشمالهم ماتعطيه لهم باليمين مثلما يقول القدماء لأربكتهم اراؤك ، ومن ناحية أخرى

فان الماديين سيتهمونك بأنك تبحث عن التجرد من المصلحة حيث لايوجد ، والرغبة الأنانية فى نظرهم كافية فى تفسير كل الحقائق التى ترى أنت فيها خطة جيزويتية فى الطبيعة لأخضاعنا لأرادتها

فيلاليت

السبب فى ذلك هو أن العلماء الذين يتقلدون اسم الماديين بغير حق فى الاغلب لم يحللوا طبيعة غرائزنا الاخلاقية والفلسفية والفنية تحليلا كافيا ، واذا فكر الانسان جيداً رأى أنه فى أكثر الامور له صالح مباشر فى ألا يكون ذا فضيلة . ولكنه مع ذلك مستمسك بالفضيلة فى أغلب أوقاته . ولو كان الحق والخير والجمال أشياء لاقيمة لها لتركها الناس من زمن بعيد لانها غير مثمرة . وأن النبوغ الصادق والفضيلة الحقة والعلم الصحيح تضر بصالحنا ولاتعيننا على النجاح بل هى تعوق النجاح . وفى بعض الاوقات تجر عليه البلايا . ولولم يكن فى الصادق قيمة مجردة لقضى التطلع البشرى الى المعرفة نحبه من زمن ولو لم يكن الصالح مطلب ارادة أكبر من ارادتنا لعلمتنا آلاف التجارب أن لانغربه ونخدع ، والرجل الفاضل والعالم والفنان العظيم هم أسطع البراهين على وجود الله . ولكن أبسط الحقائق النفسية اذا احسنا استخبارها أدت الى نفس النتيجة . ومن الاوهام التى تتطلبها مصلحة الانسانية ومصلحة الامة فان مسألة روح

العائلة لها المكان الاول والفضائل العائلية لازمة لبقاء المجتمع سليما. وقد احتاطت الطبيعة لذلك بعيوب غريبة فى المنطق تخدع أشد الناس تهذيبا وأكثرهم انهما كا لحسن الحظ . والا كتفاء بالزوجة الواحدة لادليل عليه فى بنية الانسان . ولكنه لازم وجوهرى لتكوين الشعوب العظيمة وحفظها . وقد اكتسب من الاراء قوة قانون شبيه بالطبيعى . وعدد كثير من أفاضل المواطنين لايعيشون الا ليتعهدوا أولادهم ويربوهم . ولايكون لأولادهم هؤلاء شغل اذا بلغوا حد الرجولة سوى تعهد أولادهم أيضا . والقياس الفاسد واضح ولكنه لايعوق انسانا لان الطبيعة مفتقرة الى هذا الاهتمام النزيه وهى تحفظ لنفسها فرصة أنه قد يبرز من أكنان هذا الغموض رجل من الطراز الاول يتصرف برأس المال الذى جمعه له نشاط أجداده ويستثمره فى وقت قصير أحسن استثمار لصالح الفن والعلم والسياسة

ويمكن أن نلحظ ماكيافلية الطبيعة الغريزية علاوة على ذلك فى الخداع العظيم الذى ينطوى عليه الصلاح . وان صلاح طبيعة الكلب لايفتر ولو أنه يسبب له الخيبة وسوء المعاملة . ومعاملة الانسان المهينة لاتسيؤه لانه يحب الانسان . وهو يشعر بتفوق فى ذلك . وهو يزهو ويفخر بأنه يشارك فى حياة دنيا أسمى ، ولوكان الواجب نتيجة تفكيرأنانى أو فلسفى لنبذه الكلب من زمن لان الانسان يقسو عليه فى بعض الاوقات ويجحد عطفه وهذا أيضاً

يصدق عن أدب هؤلاء الذين تصطفيهم الطبيعة ليقوموا بدور تضحية النفس . وسيوجد على الدوام ضحايا راغبة فى تلبية مطالب الكون . والشعوب التى امتازت بالصلاح مثل الملاح البريطانى والفلاح الليثونى دريئة للاحتقار والمهانة من الشعوب الاقوى . والذى يطيع هو على الدوام فى الغالب خير من الذي يأمر والفرد الذى أوقف حياته على الصلاح والخير محتوم عليه ان يكون موضع احتقار ولكنه مع ذلك سيظل يلعب دوره لانه لازم لغرض الطبيعة . ويمكن أيضا أن تقول كثيرا عن الاستقامة ولو أن البرهنة فى هذه الحال تكون أقل قوة لان هنالك عقوبة تنزل بمن ينحرف عن جادتها فى حين أنه ليس ثمت من عقوبة تحيق بمن انشق على الصلاح . والحقيقة أن الجميع متشابهون فى وقوعهم فى أحابيل الطائر المحكمة . ومحاولة محو عاطفة الورع من هذه الدنيا والعودة بكل شيء الى الانانية المحضة محاولة مستحيلة كمحاولة انتزاع أعضاء الامومة من المرأة، والانانى المزهو بنفسه لانه اقام مذهبه فى ضوء المصلحة الذاتية هو نفسه من مفاتين الطبيعة ، والانانى يكذب مذهبه آلاف المرات فى اليوم ، وحياة الانانى نسيج من المتناقضات ومن الاعمال التى اذا نظرنا اليها من وجهة نظره وجدناها سخيفة حمقاء

ايدوكس

الحقيقة انى لا اعرف قديسا قد حمل انكار النفس الى الحد الذى حمله اليه عالم من علماء عصرنا تعده العقول السطحية كافراً وماديا

فيلاليت .

لقد اصبت مفصل الحق ، ولا يوجد فى مذهب من المذاهب قيمة مجردة للفضيلة مثلما لها فى مذهبنا . وطاعة الطبيعة عندنا هى الاشتراك فى العمل الالهى ، ولقد رأى «كانت» بعبقريته النادرة أن هذا هو أس الدين الذى ينشأ من العقل العملى لا من العقل المفكر ، والله وهو روح الدنيا الموكل بحفظها والقيم على مصيرها يحب الفضيلة ويقرها لانها تخدم غرضه ، ولانها تضيف حجرا الى البنيان الرفيع المتسامى الى الابد فللفضيلة مركز سام فى التكوين العام ، وهى الحاضض والمحرك الاكبر للخطة الالهية ومن ثم هى أقوى برهان على وجود هذه الخطة ، أن الفضيلة موجودة ومن اللازم أن نفسرها ، ولا يمكن أن يكون هذا الباعث القوى شيئا زائدا عن الحاجة والدين فى الانسان كبناء العش للطير ، فانه بغتة تتولد فى الكافى غرابة وخفاء غريزة لم يشعربها من قبل ؛ فالطائر الذى لم يسبق له ان باض ولم ير ذلك بعينه يعرف الوظيفة الطبيعية التى سيقوم بها ؛ وهو يعمل بسرور واخلاص لغاية لايفهمها ؛

وكذلك النحل يمج العسل والنمل يخزن ما يخزن بغريزة بعيدة عما يمليه الحزم الاناني

وقد تم مولد العاطفة الدينية فى الانسان على هذا النمط ، كان الانسان يجول غير مكترث ثم يسود فجأة سكون وكأنما يقف تيار حواسه ثم يرفع صوته « يارب ما أعجب مصيرى ! هل حقيقة أنا موجود ! وما هذه الدنيا ! وهذه الشمس هل هي « انا » وهل تنبعث من قلبي الاشعة ؟ ياأبتاه انى أراك وراء السحب ! ويعود ثانية ضوضاء العالم الخارجي ويسدل الستار على الرؤيا ، ولكن ابتداء من هذه اللحظة يشرع الكائن الانانى فى الظاهر فى القيام بأعمال لاتفسر وينجز أشياء تتنافر تنافراً ظاهرا مع مصلحته ويوقف نفسه لغاية لايفقهها ويشعر بضرورة احناء الرأس والعبادة

آه ما أسمى سرور الرجل الصالح ! أنه مسالك الدنيا واذا وخزه ضميره عندما يستشعر العزلة ويرى نفسه عاجزا عن دفع اعتراضات الماديين فليهش ويبشر فهو على الحق وهو الرجل الحكيم ، وهو واحد فرد بين مائة الف ، وهو الذى يخلص صود يوم والاقلية التى يتصل بها هى عماد هذا الكوكب ، ولاتوجد الدنيا الا من أجله ومن اجل امثاله

فهناك اذن نظام أعلى للاشياء قد أحدقت بنا شباكه والطبيعة

تتصرف بنا تصرفها برعيل من المصارعين مقدر عليهم أن تسفك دماؤهم وراء غاية ليست لهم ، وهي تعاملنا معاملة المستبد الشرقي لمماليكه الذين يستعملهم لغرض خفي دون أن يظهرلهم بنفسه ، ويقوم بنفوس هؤلاء نوعان من الشعر ، ففي فريق منهم ينشأ شعور الثورة والكراهة لهذا الطاغية (وهذا هو الموقف الاخلاقي الذي وقف عنده شوبنهور) وفي الفريق الآخر ينبعث شعور الاستسلام بل الشكران والحب لغرض الاشياء الخفي وهذا هو رأى نخته ، وهو الرأى الذى وفقت الى الاستقرار عليه

اتيفرون

أهنئك على ذلك ، وأنت موافق — على أي حال — ان كلتا هاتين الوجهتين شرعى الى حد ما ونحن نخدم غرضا قد فرضته الطبيعة . والطبيعة لاتكشف لناعنه . ونحن كما ترى ضحايا على غير ارادتنا . فهل ينبغي لنا ان نكون ضحايا مستسلمة ؟

فيلاليت

نعم يلزم أن نكون كذلك . وشوبنهور يناقض نفسه تناقضا يجعل موقفه أقل صحة من موقف نخته . فهو يسلم بان للعالم غرضا . وقد عرف بجلاء ما كيا فلية الطبيعة مثلا فى الحب . ولكنه لم يدرك ان هذا يكفى لتأكيد الاعتقاد بالله ولاثبات ان للفضيلة معنى . وكان ينبغى لشوبنهور ان يستخلص ان الفضيلة السامية هى

الاستسلام أى قبول الحياة كما هى وعلى انها تخدم غرضا اعلى . ومقدماته تدل على ذلك . واذا كان للطبيعة غرض فلنضع جهودنا تحت تصرفها . وطاعة الطبيعة واتباع تعاليمها أو على الاقل مسايرة نزعتها هى قانون . واذا كان للحياة قانون فانه يتبع ذلك ان لها معنى . وشوبنهور ليس ثائرا من طراز بيرون وهنريك هينى فان كليهما لم يعرف القانون الاخلاقى . بل هو فى ثورته أشد جرأة لانه غير مستسلم للطبيعة ويدعى حق عرقلة رغباتها ، فهو مذنب أولا وعديم الفائدة ثانيا لان الطبيعة ستنفذ طرقها وقد أحسنت تصريف الامور وأحكمت الشبكة ومهما صنعنا فان الطبيعة ستبلغ غرضها وهو خديعتنا لاجل مصلحتها ، والمسألة الخطيرة هى ان نعرف ان كان للطبيعة غرض وهذا ممكن انكاره انكارا وجيها فى ظواهره ، ولكن شوبنهور لاينكر ذلك ؛ ومن ثم فانه من الصعب ان نفهم لا اخلاقيته ، وأنا ارى بوضوح مع شوبنهور أن هناك أنانية عظيمة تخدعنا ولكننى — ولست فى ذلك مثل شو بنهور — مستسلم ، فانا اذعن وأخضع لأغراض الكائن الأعلى ومن ثم ترجع الآداب الى الخضوع واللاأخلاقية قائمة على الثورة ضد حالة للاشياء قد فطنا الى ما بها من خداع ويلزم ان ندركها ونخضع لها فى نفس الوقت

وثورة الانسان هي الجريمة الاصلية ، واذا تحرينا الصدق

فانها هى الجريمة الوحيدة الممكنة ، وقد قيدت الطبيعة الانسان بحيل بارعة مثل الدين والحب وحاسة الخير والحق ، وهى غرائز تخدع الانسان وتسخره لغايات خارجة عنه اذا نظر اليها من الوجهة الشخصية . والانسان بتقدم التفكير يرى اخاديع الطبيعة شيئا فشيئا وبامعانه فى النقد يهدم الدين والحب والخير والصدق فهل يعكف على هذا المبدأ او تتغلب الطبيعة ؟ ربما كانت الافلاك التى أدركها البوار هي تلك الافلاك التى تغلب فيها النقد على حيل الطبيعة. وفى بعض الاحيان يخيل الى انه لو قبل كل انسان فلسفتنا لانساقت الدنيا الى نهايتها وانقضى امرها

(ايدوكس)

ليس هذا بالامر الذى يخشى خطره . فان الناس لا تصدقنا فى ذلك يا سيدى الفاضل . وستدق النواقيس على الدوام. وسترن تهليلات الطبيعة يد الدهر. وستوجد ابدا ارواح نقية صافية تتغنى نشيد الافراح الغامضة .وإنما العزاء الداخلى العظيم السامى هو فى التفكير باننا نؤلف جزءاً من كل. وان هذا الكل يتقدم تقدما مستمراً الى غرضه. وانه مهما اقترفنا من اخطاء فلا خوف من ان القارب الذى نبحر فيه يتعرض للخطر ودعنا لا نخدع فى ذلك. وان المدرسة الجديدة تعتبرنا نحن المثاليين خطرين مثل الارثودكس

(فيلاليت)

"المدرسة المادية على حق فى ذلك«يعيش فينا الله فتشتد حماستنا وهو يحركنا » لا ترتضى هذه الفلسفة القزمية الا الارواح الواهنة، والرجل العظيم ينبغي له ان يشترك فى تأييد الخدعة التى تقوم على اساسها الطبيعة، وان اشرف عمل العبقرى هو ان يتآمر مع الله وان يحابى سياسة الابدى. وان يساعد على بث احابيل الطبيعة الخفية ويناصرها فى خديعة الافراد للخير العام، وان يكون اداة هذا الوهم العظيم بان يبشر بالفضيلة للناس وهو عارف تمام المعرفة انهم لا يستمدون منها منفعة شخصية، مثلما يقود القائد الحربى جنده المساكين الى ساحة الموت لغاية لا يفهمونها ولا يقدرونها ، اننا نعمل لاجل الله مثل النحل الذى يجمع الشهد للانسان دون ان يعرف ذلك.

(أتيفرون)

ولكن الانسان بالنسبة للنحلة فرد أسمى ينبغي لها ان تعرفه فى حين اننا ليس عند ناشىء اسمى يمكن حصره وتحديده داخل حدود الشخصية المحدودة ولو كان لنا كائن اسمي لكان من المحتم ان نعرفه، ولا شىء يحدث أبدا يماثل لما يحدث عند ما يخلى الانسان خلايا النحل ليجنى الشهد.

(فيلاليت)

الحقيقة انه لا يوجد داخل المدى الذى تصل اليه وسائل ملاحظتنا اى شعور (اريد ان أقول اى شعور مفكر محدود) اسمى

من الانسان ، وانما هناك شعور تلقائي مديد منبسط مسيطر على الانسان ، ومن ثم تقارب فكرتنا الالهيين ، فلنساير اغراض الطبيعة ، ولنكن (ولو إننا لم نخدع) مخدوعين لها ، لنكن مخدوعين بارادتنا لما كيافليتها ، ولنتغلغل الى مآربها ونستسلم لها ، وإنما الشر هو الثورة على الطبيعة عندما نراها تخدعنا ، نعم حقيقة هي تخدعنا ، ولكن لنخضع لها . ان غرضها خير فلنردد ما تريده ، وانما الفضيلة هي التزامك قول آمين لكل الغايات الخفية التي تعمل العناية على تحقيقها بوساطتنا

(اتيفرون)

نحن في زعمك نكون جزءا من خطة قائمة على التناقض مقصودا به ان تصير محسة مدركة . ونكون ايضا جزءا من تلك السخرية التي تقول عنها بحق ، إنها فلسفية للغاية وانت مستعد الموافقة على تلبيسات الابدي . ولكنك مصر على ان يعرف انك غير مخدوع به . ولقد طالما لمحت فيك شعورا ممتازا مفرط الرقة وهو ضرب من الخوف من التظاهر بانك تستمد أية منفعة من فضيلتك . وأنت تمقت المراءاة اشد المقت . بل قد بلغ بك مقتها الى حد انك بعد ان اكبرت الفضيلة كل اكبار تشعر بضرورة القول بانك لا تحسب لها حسابا كبيرا وإنها ليست في الحقيقة سوى وهم . وانك لتستطيع تكلف الفجر حتى لا تظهر بمظهر المرائي في عصر حشو ه الرياء مثل عصرنا حيث ينتفع الانسان من كونه مفكرا صالحا .

(فيلاليت)

حقيقة لو كنت قسيسا لرفضت باستمرار ان اتقاضى اجر للقداس وخفت ان اسلك سلوك التاجر الذى يسلم غرارة فارغة لقاء نقود مدفوعة له، وانا كذلك سأتردد فى اجتناء اية فائدة من وراء اعتقاداتى الدينية وسأخشى من ان اظهر بأنى اوزع وثائق زائفة. وانى باستغواء الناس بالامال المشكوك فيها اعترض سبيلهم فى الحصول على نصيبهم المناسب فى هذه الدنيا، وهذه الاشياء حولها من الحق ما يبرر كثرة لغط الناس بها وان يعيشوا عليها وان لا ينواعن التفكير فيها. ولكنها مع ذلك ليست من التحقيق والثبوت بحيث يضمن الانسان ان يشعر بانه فى احترافه تعليمها لا يمارس الغش من جهة نوع المقالة التى يلقيها

(اتيفرون)

لقد امتد بنا الوقت، وبرد المساء يوشك ان يظهر اثره سريعا فى هذه الادغال المتكاثفة، وفى اعتقادى اننا وفينا بحث ما سماه فيلاليت فى اول المباحثة «المؤكدات»، ويمكن ان نتلاقى فى الغد ثانية، وربما اقدم بعض الاعتراضات لانه ولوانى اسلم بان هناك ارادة عليا تسخرنا لرغبتها وتتم غاية من الغايات بطريق الانسانية فانى لم اتعود اعتبار مثل هذه الافكار فى مكان الاعتقاد بالله أو الديانة الطبيعية واود ان يكون معنا تيوفراست الذى سمعته مرة يقول أفكار جريئة عن اغراض الكون.

(فيلاليت وايدوكس) استصحبه معك، وسنرحب بقدومه،

المحاورة الثانية

المظنونات

المحاورة الثانية

﴿ المظنونات ﴾

ايدوكس . فيلاليت . أتيفرون . تيوفراست

فيلاليت

فى محادثتنا بالأمس حاولنا ياتيوفراست أن نحدد أفكارنا بالضبط عن هذا النوع من الشعور المدرك الذى يتكشف عنه الكون فى كليته ، ولقد كادت آراؤنا أن تستقر على أنه ضرب من الشعور الغامض اللدنى يشابه الشعور الذى يهيمن على نماء الجنين أو الحيوان. وهو مع ذلك مكفول الى حد عجيب ، ويحقق أغراضه بطرائق. لايخطئها السداد ، ولقد ذكر لنا اتيفرون ان لك آراء خاصة فى هذا الصدد فاطرحها لنا على بساط البحث إذا كنت ترانا جديرين. بفهمها

تيوفراست

أعتقد أن هناك حاصلا للدنيا وتزايداً فى رأس مال خيرات الانسانية والكون يتكون بتكاثر بطىء متوال مصحوب بخسائر فادحة ، ولكن الزيادة مستمرة كما فى نشأة المراهق ، ولا يمكث سوى الصالح ولا يمكن أن يقصر البقاء الا عليه ، وليس يدوم على البلى سوى. الاعمال التى كان الباعث عليها هو المثل الاعلى ، واما غير ذلك فهو

فان زائل ، ولما كانت الآثار المتنافسة يلغى بعضها البعض . لذا فان العمل النزيه وحده هو الذى يترك الأثر الطيب ، والمجهود الباقى جد ضئيل الى جانب المجهود الضائع ، ولكنه وحده له الدوام . وماخلاه زائل ، ومن ثم ، يتكون رأس المال من تجمع العمل النافع ونصيب كل منا من الخلود بقدر الجزء الطفيف الذى يضيفه الى مستودع الترقى البشرى السرمدي ، والدليل على أن هناك ميزاناً للأرباح والخسائر هو تقدم العالم الى الأمام ، فانه لولا تزيد الخير فى الدنيا لعيقت عن الدوران ولظلت فى تناسق خامل أو أفنت جهدها فى محاولات عقيمة كالقاطرة المنزلقة فوق قضبانها ، وأن القطار بحذافيره محول الى ناحية من العسير معرفتها ولكنه يسير الى الامام ويتقدم بلا انقطاع الى الابدية ويحملنا معه

ولاجل أن نفهم هذا ينبغي لنا أن نرجع الى تصور نشأة الحركة فى العالم . فقد كان بدء الحركة فى العالم ، ومن ثم بدأ التطور العام ، اضطراباً فى التوازن ، ونفس هذا الاضطراب فى التوازن نشأ من فقدان التجانس . لان العالم لو كان متجانسا لبطلت حركته ولظل طوال الآباد خاملا لاينمو ولا يترقى . فلما ذا اذن لم يحتفظ الكون بالسكون ولماذا آثر المسير ومعاناة الاخطار عوضا عن أن يستلقى راقدا فى احضان الرتوب المطلق ؟ لقد حثه مهماز ودفعه قلق مستمر الى الحركة والاختلاج . وأزجى خفاء غامض السحب .

تفتنشت الهدوء المتجهم فى سمائه الزرقاء . والذى يجلب الحياة هو على الدوام انبعاث فجائي من الجمود بل هو رغبة وحركة لا يعرف احد مصدرها وهي شئ يقول « الى الامام » ! فلماذا يجاهد الجنين ليترك رحم أمه ؟ ولماذا يألم الطفل عندما يثغر ؟ ولماذا لايعفى من من هذا كله ؟ ولكنه لا يعفى من هذا كما لا يعفى الشاب الذى ينقاد مع عاطفة الحب التى ربما تملأ حياته مرارة وتقضى عليه فى النهاية

وكذلك اصل الحضارة اختلال فى التوازن . والحياة والحركة هما مثل فترة الصوت بين السكونين . وهي فترة لا يكتسب فيها شئ ولا يفقد شئ . والعالم والمجتمع ينزعان الى التناسق والتوازن بضرب من قانون القصور الذاتى ولكن فى هذا التوازن فناؤهما وبدأ التاريخ — او ماهو فى معنى ذلك — الانتقال من الحيوانية الى الانسانية كان جريمة اذهو انتقال فجائى من حالة النعيم الخالى من الفردية الى حالة الحرب والحب والكراهة

وما الذى أحدث الثورة الاصلية ؟ لقد تساءلت المدرسة الايبقورية —وهي المدرسة العلمية القديمة — كما نفعل نحن الآن « ماهو القصد من توازن الاشياء المتعادية وماهي قوته » ولاى غرض نقص التوازن الاصلى فى الاشياء ؟ وأى باعث — سواء كان داخليا أم خارجيا — استطاع أن يحركها ؟ لقد كان هذا

الباعث هو التشوف الى الوجود والظمأ الى معرفة نفسها والاحساس بنفسها . والضرورة في تمثيل المثل الاعلى . ومن ثم يظهر ان المثل الاعلى هو مبدأ تطور الله ونشوئه . وانه هو الخالق بطبيعته وأنه غاية الوجود والمحرك الاول له . والفكرة النقية الخالصة ليست الا قوة والمادة الخالصة جامدة . والفكرة لا تتحقق الا بالتراكيب المادية . والمادة هي مصدر كل شيء . ولكن الفكرة هي التي تحيي كل شيء والتي تدفعه الى الوجود رغبة في تحقيقها ، وهذا هو الله ، فلا بناء بلا أحجار ولا موسيقى بلا أوتار ولا فكرة بلا مادة عصبية . ولكن الاحجار ليست هي البناء والكمنجات ليست هي الموسيقى والذهن ليس هو الفكر . وانما هذه هي الحالات التي بدونها لا يكون البناء ولا الموسيقى ولا الفكر . وان لحنا من ألحان بيتهوفن على الورق يعد موجودا بالقوة . والاهتزاز هو الذي يجعله موجودا بالفعل . وهذا الاهتزاز حقيقة عضوية قابلة للوزن والقياس ؛ والفكرة قوة تريد أن تكون والمادة تمكنها وتنقلها الى الكينونة والواقع ، ومن ثم فأن قطبي الدنيا هما المثالي والمادي ؛ ولا يوجد شيء بدون مادة ولكن المادة هي حالة الوجود لا سببه . وانما علة الاشياء ومصدرها هي الفكرة « العقل يحرك الاشياء كلها » ، والفكرة هي الموجودة في الواقع وهي وحدها الكائنة ؛ وهي تطمح الى الوجود التام بايجاد التراكيب الكيميائية المناسبة لاظهارها

وقد انتهينا الى نسبة الوجود الـكامل للفكرة ليس غير ، أو للفكرة الشاعرة بنفسها أى الى الروح . حقيقة ان للذرةوجودا ولها هذه الميزة الفذة العظيمة وهى انها غير قابلة للبلى . واذا كان لزاما علينا ان نصر على ما نعلمه فهى ابدية لا لأن الذرات لا تتحلل ولا تتركب فحسب بل لانه لايوجد شئ فى حدود التجربة يعطينا أقل فكرة عن الـكيفية التى يمكن أن تتكون بها الذرة . والكائن المركب يعتريه المرض ويدركه الموت . أما الذرة فلا يعرض لها المرض ابدا وهى على الدوام سليمة وذرة الكربون التى يتكون منها تراب المجرة هى نفسها التى تطعم نيراننا . ولكنها بلا شك مجردة من الشعور . والروح على خلاف ذلك اذ لها بدأ ولها انتهاء وهى تنشأ من تآلف الذرات والروح ولو أنها زائلة تفضل المادة وتفوقها وتنسينا اياها

(ايدوكس)

انك تقلب الافكار الذائعة بشكل غريب ، وقديما كانوا يتصورون التدبير الالهى تصورهم لاعمال رجل من العباقرة او صانع آلات عالى الشأن يهيء الوسائل لدراك الغاية ، وأنت الآن تتصوره دافعا تلقائيا للحياة واحساسا غامضا يتطلع فى الكائن الذى يعمل على الاحتفاظ بذاته وأبلاغها الـكمال

(تيوفراست)

قديما كانت الناس تتصور هومر يكتب فى غرفة مطالعته مثل احد

الكتاب، أما الآن فان اشعار هومر تعتبر من عمل العبقرية اليونانية، وهي لذلك، تبدو لنا اجمل الف مرة وقديما كان الدين هو الخضوع لكائن اسمى اما الآن فان الدين معناه عبادة الفكرة فى نقائها او كما أجاد فى تعريفه ستراوس « هو ذلك العمل العقلى الذى يجمع اشعة المثل الاعلى الى نقطة واحدة بعد انعكاسها فى المظاهر المتعددة »

اتيفرون

ولكن ما رأيك فى الغرض الذى تصمد اليه الطبيعة وتحتال لبلوغه بكل هذه الطرق المحكمة

تيوفراست

الكلمة التى تعبر أحسن تعبير عن هذا الغرض هى كلمة « الشعور التنبهى » والدنيا تنزع الى نصيب أكثر فأكثر من الكينونة. والكينونة فى أكمل مراتبها هى « الشعور التنبهى » وكل مجهود الدنيا متجه الى أن تعرف نفسها وأن تحب نفسها وترى نفسها وتعجب بنفسها وغرض الدنيا هو أن تحصل العقل . وكل شيء يعين على الوصول الى ذلك . وكل كوكب مشغول بصنع الفكر والشعور الادبى والاحساس بالجمال . والمقدار القليل من الفضيلة والعقل الذى تنتجه الدنيا باجمعها هو غايتها النهائية كما أن عصارة الصمغ هى الغاية الاخيرة لشجرة الصمغ. والفكر هو الحاصل النهائى . وجاليليو وديكارت ونيوتن كانوا فى ازمنتهم الحاصل الاخير

للدنيا لان أرقى نظر للدنيا كان مستقرا فيهم والكائن فى ذاته وهو هاوية من الظلام لايقنع بالبقاء فى عزلته. وقد وجد فى الحيوان وقد وصل الحيوان الى تأمل غامض للطبيعة . وفى ساعات الحب يستطيع أن يرى لمحات من عالم الفن والجمال . والكلب يكاد أن يصل الى الفضيلة . وتناغي الطيور المغردة تسبيحات بديعة ترمي بها هذه الكائنات الصغيرة الى شيء أكثر من السرور بتدريب حناجرها .ولكن كل هذا من الضؤولة بحيث لايستحق الذكر والحياة تتمركز فى الانسان أكثر من ذاك بكثير .والانعكاس الحقيقى لاشعة الوجود دائما يبدأ بالعلوم والفضيلة السامية والفن الراقى . والانسانية هى اسمي تعبير معروف لحياة الطبيعة . والذهن البشرى هو أكمل آلة موجودة للاحساس بالكون ـ أو على الاقل فى هذه الاجزاء من المكان التى يمكن ان يصل اليها بحثنا

ولا مجال للشك فى أنه يوجد آلات تفكير اسمى لانعرفها . ولكن لنا الحق فى أن نؤكد أنه لم يصل بعد كائن مفكر خارج كوكبنا الى العلم بكل شيء والقدرة على كل شيء . اذ لايوجد دليل على أنه قد وجد كائن مفكر استطاع أن يبسط نفوذه من كوكب الى آخر . ولو كان وجد كائنات فى أى مكان وعرفت قوانين المدة والقوة معرفة كافية بحيث استطاعت أن تعمل على مدى ملايين من الفراسخ لكنا عرفنا شيئا عنها

بحوادث خاصة لاتقبل التفسير المألوف ويبدو عليها طابع القصد والتعمد

(اتيفرون)

سأتحاشى الكلام عن العوالم الاخرى ولا نزاع فى أن عدد الاجرام السماوية التى يمكن الحياة أن تنمو بها فى وقت معين قليل قلة غير محدودة بالنسبة الى الاجرام الموجودة . والارض فى الحالة الراهنة ربما تكون هي الكوكب الوحيد المعمور وسط المكان غير المحدود فلنقصر كلامنا عليها . وأن غاية كالتى نتحدث عنها لمن وراء طاقتها ويجب أن نترك كلمات « القادر على كل شىء » و « العالم بكل شىء » للفلاسفة المدرسية . ولقد كان للانسانية بداية وسيكون لها نهاية وكوكب مثل كوكبنا ليس له فى تاريخه سوى عصر واحد تكون حرارته مناسبة للسكنى . وسينتهي هذا العصر بمرور مئات قليلة من آلاف السنين . ولا سبيل للشك فى أن الارض ستصبح مثل القمر كوكبا أنضاه البلى قد اوفى على غايته واستنفد رأس ماله — أى فحمه ومعادنه وسائر قواته الحية وشعوبه . والحقيقة أن مصير الارض ليس غير محدود كما تتوهم بل هى مثل سائر الاجرام السابحة فى الفضاء ستستمد من جوفها كل ما يمكن أخذه ولكنها محتوم عليها الموت كما قال حكيم تيمان فى سفر أيوب « قبل أن تصل الى الحكمة » .

تيوفراست

لا نزاع فى أن كل تطور محصور بسبب ضيق الوسط الذى يستثمر موارده ، ولكن كلما ترامت حدود الوسط قل انحصار التطور . وليس نماء العقل مقصورا على الانسان وموارد هذا الكوكب الارضى الضئيلة . وسيمتد تقدم الروح امتداداً لاتقاس أبعاده اذا نشأت علاقات بين الكائنات المفكرة فى الكواكب المتعددة وبخاصة اذا تأكدت الروابط بين سكان العوالم النجمية المختلفة. وقد يجىء يوم يتحد فيه العالم ويكون جمعية واحدة لها عاصمة واحدة .وستكون حينذاك موارد الروح لانفاد لها.وبتراكم المبالغ بطريقة لانهائية ستتمكن الانسانية من اقتحام عالم المثل الاعلى

(اتيفرون)

ولكنك تقف هنا موقفا بعيدا عن المشاهدة نابيا عن التصور. وماهو القانون الذى تسير عليه كل ضروب النماء فى الحياة؟ ابتداء مهين وتقدم بطيء يعقبه تقدم سريع وكمال نسبى يتلوه اضمحلال بطىء ثم انحلال سريع يعقبه الموت. وكل شىء يجعلنا نعتقد ان الحضارة بعد ان تبلغ اسمى مراتبها تنحدر فى مهاوى الانحطاط ، لان قوى الانسانية الادبية والعقلية محدودة ، ونمو الانسانية يشبه نمو الفرد الذى له طفولته وشبابه ونضوجه ثم الشيخوخة وحتى الآن لم نر اثر هذا القانون الافى

نمو الافراد والامم والاسر ، ولقد فجرت الانسانية مواردلتجديد الشباب ورد نضارته على الجماعات التى علاها الكبر ، ولكن هذه الموارد ربما تنضب يوماما

وقد تعترض على بان هنالك شعوبا على الفطرة بيننا ولكنها شعوب قديمة قدما وهى الزمن منها اكثر مما وهاهمنا ، ويوجد بين الالمان وبخاصة بين السلافيين طبقات كثيفة من الاهالى لم تصل بعد الى الضوء ويملأها الامل فى المستقبل ، ولكننا اذا تجاوزنا هؤلاء لا نرى سوى سقوط شعبى ستتغلب فيه العناصر السافلة بضخامة عددها وتبيد بانتظام كل الذين تظهر فيهم ثانية الشعوب النبيلة القديمة تبعا لقانون الرجعي ، وانحطاط البشرية انحطاطا لا دواء له ممكن ومحتمل ، وان نقص الافكار السليمة وقلتها فى مسألة عدم مساواة الشعوب قد ينجم عنه الانحطاط العام. والخطر الذى يتهدد الكوكب هو ان الانانية باستغلالها اكبر نصيب من جهد الافراد وبانحصار عبادة الحق والخير والجمال فى عدد قليل من النبلاء — اقول ان الخطر هو ان الكوكب قد يرجع القهقرى الى حالة يكون فيها من المستحيل وجود فكرة واحدة نزيهة لان كل الافراد قد صاروا يشعرون بحقوقهم ، وعدم تساوى الطبقات وهى ظلم سائد فى صميم ذات الشعب هى سر تقدم البشرية ، وهى السوط الذى يستحث الدنيا على التقدم اذ ينصب للمجتمع غاية يقصدها ، تصور ماذا تصير اليه حالة الدنيا لو سكنها الزنوج

وحدهم وقصروا كل شيء على شهواتهم الفردية وسط العامية الغامرة واقاموا التحاسد وطلب المتعة والرغد المادى مقام البحث الشريف عن المثل الاعلى الوسادت بيننا مثل هذه الروح لكان هذا هو نهاية الحضارة وخاتمة كل مجهود وراء العقل، ومثل هذا الخاتمة هو اخوف ما نخافه الا اذا وجدت وسائل تجعل مقاصد العبقرى تنتصر على افكار الماديين الحقيرة هؤ لاء الماديين الذين لا يعنيهم الا اشباع شهواتهم المتسفلة

وفضلا عن ذلك فانه قد ينشأ خطر شديد من توافر العلم توافراً غير محدود فى ميدان العقل البشرى المحصور، اذ يخشى ان ينوء الذهن البشرى تحت عبئه وان يكون نفس ترقيه علة انحطاطه، ويمكن ان نتنبأ بعصر انحطاط مثل العصور الوسطى الا انه لا يعقبه عصر احياء العلوم ولا يستطيع فيه انسان ان يفهم اية فلسفة مهما كان نصيبها من السمو ويكون فيه كتاب لابلاس عن النظام الفلكى كتابا غير مفهوم قد قضى عليه بالضياع اذا لم تكن ثمت نسخ منه محفوظة فى الرقاق بعد ان اعترى البلى ورق احسن طبعاته

(تيوفراست)

هذا محتمل كل الاحتمال ولكنه لا يمس موضوعنا . ولسنا نقول بأن الانسان سيصل الى العقل المطلق . وإنما نجزم بأنه سيصل اليه شيء يشبه الانسانية . ولقد جربت حتى الآن آلاف المحاولات وستجرب آلاف اخرى بعدها . وسيكفي نجاح واحدة منها . وقوى الارض كما

رأيت بحق محدودة، ومن الواضح انه اذا لم تؤد نظرية الحرارة الآلية في خلال خمسمائة او ستمائة سنة الى اكتشاف وسائل لسد نقص الفحم فان الانسانية سترين عليها العامية ويكون من الصعب ان تميط عنها وخامتها وتقيل عثارها ، ولكن هل نظرية الحرارة ستصل الى هذه الدرجة من الكمال؟ هذه مسألة فيها نظر، وقد يعترض تقدم الروح البشرية عوامل رد فعل معادية تجعلها عاجزة عن التفكير في أشياء اسمى من الواقع ، وفي الوقت الحاضر لا يوجد اكثر من خمسين شخصا في قدرتهم مسايرة تقدم علوم خاصة والسير بها الى الأمام ؛ ومثل هذه الثقافة المحصورة في عدد جد قليل من الاذهان يمكن القضاء عليها بسهولة ، ويكفي لذلك مجلس تفتيش معتدل في شدته كالذى رأته إيطاليا في القرن السادس عشر أو إجراءات كالتى اتخذها لويز الرابع عشر ضد الهيجونوت ، وهبوط الحرارة الفكرية درجة أو درجتين يكفي لابادة هذه المخلوقات الدقيقة التى لا تنموسوي في أحوال ضيقة المضطرب مثل النباتات المحفوظة في المقاصير الزجاجية وهكذا قد تهلك الانسانية على قيد غلوة من الجسر الذى ينجيها ومصير الدنيا قد يتوقف على رجل فرد أو عدد قليل من الرجال الذين ربما يستطيعون التغلب على الصعوبة التى اعجزت الانسانية برمتها ، ومن الجائز انه كان هنالك دنى — كما سيكون — مات في الشقاء بها رجال كان في ذرعهم ان يخلصوا الكون وينقذوه ولم يجدوا

الظروف الملائمة لتطورهم ؛ وانه كان هناك عوالم أخرى سحق فيها جرثومة الحضارة رجال هدامون من طراز فيليب الثانى قد نجحوا فى اقامة الحوائل فى سبيل تقدم الروح

وقد يعترض تقدم الانسانية أحوال كثيرة ، ولفقدان الاتصال بين الدنى المختلفة فان المحاولات غير الموفقة تترك كل شيء حيث هو لأن المحاولة التى لم تثمر يغطى عليها النسيان فلا تصلح لتكون نقطة ابتداء بعد ذلك ؛ وقد أمدت الحضارة القديمة بعد سقوطها الحضارة الحديثة بطريق الآثار المكتوبة والمرسومة التى خلفتها تلك الآثار التى درست أحسن دراسة فى عصر أحياء العلوم ، ولو كانت مثل هذه المحاولات والمجهودات للرقى قد تمت فى كوكب مثل المريخ أو الزهرة لكانت بالنسبة لنا كأنها لم توجد قط

فهل يمكن أن يكون مصير الارض على هذه الصورة ؟ هذا ما نخافه ولكنه غير محقق والأرض على ما بها من نقص لها مزية التغيير الدائم ، ولن تصل الانسانية يوما الى التوازن الذى هو خاتمة الرقى مثل النمل والنحل الذى وصل الى حالة الدعة والراحة .

على أن هذا أمر ضئيل الاهمية ؛ وقد تفشل الارض فى آداء رسالتها أو تستنفد أسباب وجودها قبل أن تنجز عملها كما حدث بآلاف الملايين من الاجرام السماوية ويكفى

ان تتم واحدة من كل هذه الاجرام عملها وتبلغ غايتها . ولا يعزب عن بالنا أن التجربة فى هذا الكون انما تجرب فى عدد لا نهائى من الدنى .وواحدة من بين هذا العدد العديد ستبلغ العلم الكامل ولنذكر ان النجاح مرة واحـدة يكفى . والكون أشبه باوراق النصيب تسحب كل أوراقه . وعندما تظهر الورقة الرابحة لايكون هذا من قذفات الصدفة وانما هو من الحتم والضرورة

وهناك وسيلتان لادراك الغرض . وهما أن نصوب نحوه باحكام أو ان نطلق طلقات عدة فتصيب واحـدة منها الهدف المنشود . والقنبلة الواحـدة المصوبة تصويبا محكما تعادل عشرة آلاف قنبلة لم يحكم تصويبها . وتأمل الخسائر فى مادة تلقيح الازهار فانه لا يكاد يلج الى الصمامة سوى جزء من مليون منها . وبيض سمك الحوت مثال للتبذير اوسع حدودا والطبيعة تتصرف تصرف عامل لايبالى بمواد عمله ويبذرها تبذيرا ذريعا . ولا يهم الطبيعة فتيلا ان تفقد كل هذا المقدار من قوتها فانها زارع يبذر حبوبه جزافا دون أن يلقى باله للحبوب التى تقع على الحجر . وواحـدة من مئات آلاف الحبوب تثمر . وهذه كافيـة . ولنفرض ان جراثيم الحياة متنقـلة فى الفضاء تبحث على غير هدى عن الثقب الذى يمكن أن تثمر فيه . ففى مثل هذه الحالة تكون الفرصة المتاحة لهذه الجرثومة أو لتلك فرصة نادرة بعيدة ولـكن اذا كان عدد هـذه الجراثيم غير متناه

فانه لابدمن ولوج واحدة فى هذا الثقب . أو لنفرض وجود قبة من البلور ممتـدة على مدى الف مليون فرسخ بها ثقب قطره لايتجاوز جزء اعلى اثنى عشر من القيراط وحولها حشرة عميـاء تضرب بجناحيها الى الابد باحثةعن الثقب لتلج منه فان هذه الحشرة ستنجح اذا اعطي لها متسع من الزمن غير محدود وفرصة تعوض عليها عدم مواتاة الصدف والطبيعـة لاتبذل مجهودا لاجتناب اشتباك الطرق وضيق المسالك . والحوت الصغير المحفوظ فى الحوض ينمو أكبر فأكبر حتى يستنفد كل ما يمكن استنفاده من أسباب حياته والشجيرات تنمو فى تجاويف الصخور كما تنمو فى الارض البراح ، وكل شىء يستطيع أن ينبت فانه ينبت دون ان يحسب حسابا لاى اعتبار آخر ؛ واذكر انى شاهدت سليحفات فى قاع وادى الحول فى سوريا ، وكنت أعلم أن الوادى ستغيض مياهه ولذا كنت أدرك أنها ستموت خلال يومين ولكنها لم تكن تفكر فى شىء من هذا القبيل. كانت مسرورة مرحة كدأبها

والطبيعة كلها تنم على احتقار للفرد. وبهاء عاصمة من العواصم انما يقوم على انقاض من الحياة الريفية حيث يعيش الملايين عيشة غامضة الشأن ليعملوا على ايجاد بعض الفراش المتألق الذى يجىء ليحترق فى الضوء . وأنه لابد من تصفية ثلاثين أو أربعين مليونا من شعوبنا الحديثة الـكثيفة الجماجم للحصول على شاعر كبير أو

أو عبقرى من الطراز الاول ويندر ظهور العظيم فى مجتمع مكون من خمسة ملايين أو ستة ملايين لان الانتخاب يجرى فى دائرة محصورة . وانما ينبغ العظيم فى شطر من الانسانية قد نقي كل تنقية وصفي أحسن تصفية . والكوكب الصغير يخلو من العبقرية ولا يوجد فى الكيلو متر المكعب من ماء البحر سوى كمية قليلة من الفضة ذات قيمة . وفى المتر المكعب الواحد لاقيمة لها على الاطلاق

والكون مثل الآلة القوة المثمرة فيه جزء من القوة التى تنفق. ولكن الكون مثل سائر آلات الطبيعة يمتاز بضؤولة القوة المثمرة بالنسبة الى حجمه . وعلى وجه العموم فان آلية الكون ناقصة كل النقص من الناحية الاقتصادية . وأن الطبيعة تشبه معملا يستهلك فيه مائة الف قنطار من الفحم الانكليزى لكى تعمل عمل قنطار واحد ولا تكاد ترى فى المليون من الرجال « الرجل النافع » . ومن ثم ترانا نميل الى أن نستنبط من ذلك انحطاط الارض ونحسب الكوكب الخالى من الحمقى الجهلاء والاشرار الماكرين أسمي منها ، ولكن هذا وهم ، وأن العمل الذى يقصد به خدمة الحق صغير فى المظهر ولكنه وحده الباقى وكل ما خلاه يذهب هباء وان رأس مال الحق ولو أنه متجمع من وفورات جد صغيرة هو فى زيادة مطردة ، والسخافات والاخطاء يبطل بعضها

البعض . أما الحق فانه — على النقيض من ذلك — هو الباقى وهو البعيد الاثر وهو هو خلاصة مجهود الانسانية اذا ما ذهب السخف والحماقة شعاعا بددا . والموت يعفي على الاحمق والشرير كل تعفية

ولا خلاف فى ضخامة عدد الانانيين والماديين واللادينيين الذين لايخدمون المثل الاعلى ، ولكنه بحسبه أن يكون له أشياع قليلون ؛ والفلسفة هى فاكهة شجرة الانسانية ولكن الفاكهة ليست بشيء اذا قيست الى ضخامة الشجرة ، والدوحة الهائلة تثمر فاكهة فى حجم الاصبع ووظيفة هذا الفرع الباسق هو أن يخرج مثل هذا الجرم الصغير ، والفلسفة وهى غاية الخليقة كانت تعيش من قبل على فتات موائد الامراء الذين حموا جانبها ضد السخف المستفيض ، وهى الآن تعيش على فتات مائدة الدنيا ، وهذه الحالة على مابها من مهانة أفضل مما لو كان الفلاسفة فى الدنيا بالمكانة التى يجب أن يكونوا بها حسب مانعتقد ، وهناك تجربتان يثبتان الخطأ الكامن فى حبس الاموال الجسيمة على الاعمال الروحية فقد كانت الثروة التى جمعتها الكنيسة فى العصور الوسطى لاتصرف فى الغاية التى قصدت بها ، والصدقات الجزيلة الموهوبة للجامعات الانكليزيه موزعة بحيث أن جزءاً قليلا منها يصرف فى وجوه الاغراض العلمية

ومن المؤكد أنه لو كان مركز كل انسان فى الدنيا مناسبا

للخدمة التى يؤديها المثل الاعلي لكان من الواجب أن يكون
ديكارت ونيوتن وجاليليو وهيجنز من الامراء أو من أصحاب
الملايين فى عصرهم ، ولا يستطيع انسان أن يقول ان الخدمات التى
أداها أحد صيارفة المال اذا قورنت الى الخدمات التى أداها
لينيه أو أمبير تعادل نسبة الالف الى الواحد ولكننا بعد اعمال
الفكر نرى أن بقاء الاشياء على حالتها خير وأبقى ، وحتى اذا صارت
الارض تابعة لنا فان الانسب هو أن ندفع أزمة أمورها الى يد
الدنيويين الذين تحميهم خفة أخلامهم وغاظة أنانيتهم من وساوسنا
وارتبا كنا وان وجود الاغنياء الذين نحسب أن حياتهم عديمة
الفائدة وأهل التأنق والمودة له من الخطر أكثر مما تقدر .
فان وجود أمثال هؤلاء لازم لاطلاق الخيول فى المضامير واقامة
المراقص وبالاختصار للقيام بأعمال المظاهر الفارغة التى يضيق بها
ذرع الحكيم ولاستنفاد تلك الملذات التى يخشى أن يتلهى بها
ونحن لا نعرف الى أى مدى نحن مدينون لهؤلاء الذين يأخذون
على عاتقهم عبأ أن يكونوا أغنياء من أجلنا . وأنه لا يوجد سوى عدد جد
قليل من الاذهان فى طاقته ان يتفاسف ، فالتجمل والتزيين واللقاءات
فى غابة بولون ، ومظاهر الابهة والابرا والسباق تستنفد مجهودا لولم
يصرف فيها لكان مجلبة للضرر ومفسدة للنوازع الذهنية السامية ؛
نعم ان كل هذا اللغط الدنيوى لازم ليجلس رجل مثل كيفييه

اوب هادئا فى حجرة مطالعته الى جانب مكتبة قيمة غير مكره ولا
ولا مغرى بان يضيع وقته فى مثل هذه المظاهر الفارغة؛ ومن ثم كانت
البلاد التى يوجد بها نظام الطبقات أكثر ملاءمة للعلماء لانهم
فى مثل هذه البلاد لايكون عليهم واجبات سياسية ولا اجتماعية ولا
شىء فى الحقيقة يعترض سبيلهم، من أجل ذلك ينحنى العالم برغبته
(فى شىء من السخرية) ازاء رجال الحرب ورجال الدنيا ، والمفكر
الهادىء يعيش متخلفا عنهم ويتبعه على آثاره القسيس بتشدده
والناس بأحكامهم الناقصة وافكارهم العامية.

والعقل نصيره الزمن ومن هنا مصدر قوته . وهو لا يخسر
فرصة صالحة. بل هو على النقيض من ذلك فان كل ماعداه يذهب
سدى. وأمام الانسانية داخل حدود هذا الكوكب متسع من
الاجيال المتطاولة قبل ان يدركها الانحطاط وستمر بادوار متتابعة
من النضوج والنضارة . وفى الحين الذى يتمشى الفساد فى الفاكهة
الناضجة تكون الفاكهة الجديدة فى طريق التكوين، وعدد المحاولات
لايمكن حصره ، وسيقتحم المضيق ويصل المرفأ شعور تنبهى
واحد من بين العدد اللانهائى.

(أتيفرون)

إذن أنت تذهب الى ماذهب اليه هجل فترى ان الله غير كائن وإنما
سيكون.

(تيوفراست)

لاأذهب الى هذا بالضبط ، وان المثل الاعلى موجود وهو سرمدى ، ولكنه لم يتحقق بعد ماديا ، ولكنه سيتحقق يوما ما ، وسيحققه شعور تنبهي يشابه شعور الانسانية ولكنه سيكون اسمى كثيرا من حالتنا الحاضرة التعسة المهينة، بل انه سيكون من السمو بحيث ان نسبتنا اليه ستكون كنسبة آلة مارلى القديمة الى الآلة البخارية الكاملة . والعمل الموكول الى كل حي هو أن يعمل على كمال الله وأن لايدخر جهدا فى هذا الغرض الذى سيتم دائرة الاشياء بالوحدة . وحتى الآن قد تكفلت الغرائز العمياء والميل اللاشاعر فى الاشياء بالقيام بهذا العمل . ولكن العقل الذى لم يشترك بعد فى هذا العمل الكبير سيتولى أموره ويضطلع باعبائه ويعمل على وجود الله بعد تنظيم الانسانية.

ولانهائية الزمن هى العامل الاكبر فى هذا الشأن . وأننا لانرى شيئا فى تاريخ الانسانية قبل عشرة آلاف سنة . ونشاط الحركة العلمية لايرجع تاريخه الى أكثر من قرن . فماذا ستكون الانسانية بعد عشرة آلاف أو مائة الف سنة ؟ وماذا ستكون الدنيا بعد مرور الف مليون سنة ؟ ربما لم تكن الارض موجودة منذ الف مليون سنة . كانت متصلة بالشمس ولم يكن القمر قد انفصل عنها . فما الذى ستصير اليه فى مدى الف مليون سنة ؟ من

المستحيل أن نعرف ذلك ولكن هذا اليوم آت لاريب فيه وليست عندنا فكرة محدودة عن حالة المادة فى باطن الارض ومع هذا فان هذه الحالة التى لايمكننا أن نتصورها موجودة على بعد خمسمائة فرسخ منا

ولا يعزب عن فكرنا أن الانسانية فى يدها الآن وسيلة لم تكن من قبل وهذه الوسيلة هى العلم ، ولقد توصل العلم فى أقل من مائة سنة الى استخدام البخار والسكك الحديدية والتلغراف الكهربائى والفوتوغرافيا والانارة بالغاز وآلاف الاختراعات الكيميائية. وادخال العلم فى الفنون الحربية لايرجع الى اكثر من ثمانى سنوات أو عشر مضت ، وقد أحدث تغييرات تذهل فردريك الاكبر ونابليون لو كان أتيح لكليهما أن يبصرها . وليس من اليسير التنبؤ والاخبار عن حالة الصناعة وفن الحرب بعد مائة سنة ، ومن العبث التام أن نحاول معرفة ماذا سيصير اليه ذلك بعد الف أو عشرة آلاف سنة . ولا شك فى أن الارض ستكون موجودة بعد عشرة ألاف سنة وستكون صالحة للسكنى برغم ما يعتريها من أسباب الانحطاط المتفاقم

وأعرف الاخطار التى ستحف بالحضارة من جراء نقص الفحم وذيوع الافكار الانانية ، وهما حادثتان من معدن واحد فان انتشار الافكار الديموقراطية الوضيعة نفسه ضرب من نفاد الفحم ودليل

انطفاء الحماسة الاخلاقية ، وانقضاء الاخلاص والتفانى ، وآية افلاس الموارد الاقتصادية القديمة فى الارض ، واحيانا يخيل الى ان الارض فى المستقبل سيسكنها النوكى الذين يتدفأون فى الشمس ويعيشون عيشة خمول وتبلد لايملكون فيها سوى ضروريات الحياة المادية ؛ ولكن العلم سيعمل على تلافى ذلك ويتدارك خطره. وسيستدفع الخطر الاول بالاحتفاظ بحرارة الشمس أو قوة المد والجزر ، وسيدرأ الخطر الثانى بتقدم فن الحرب الذى سيكون قوة منظمة فى يد ارستقراطية فكرية أخلاقية ، وجيوشنا فى الوقت الحاضر تشبه ذلك من بعض الوجوه وهى تمكن من فى يده قيادتها من السيطرة على الجماهير العزلاء غير النظامية ، ولكنها بها ضعف متأصل لاطباب لدائه لانها مؤلفة من صفوف الناس. واذا كان الحسد والجشع قد افسدا الناس اجمعين فسيكون من المستحيل الاعتماد عليهم فى كبح هذه الاهواء الشريرة. واذا كنا نريد ان نتخيل حالة يحسن ان تستقر عليها الاشياء فلنتصور فئة قليلة من الحكماء يحكمون الانسانية بوسائل لا يعرفها سواهم ولا يستطيع ان يستخدمها سائر الناس لانها تتطلب البسطة فى العلم المجرد

ومن ثم فان العلم هو العامل الاكبر فى إنماء الشعور التنبهى الالهى. ومن الناحية الفكرية هو الكون يتعرف نفسه . ومن الناحية العملية فهو يقدم للقوة الالهية وسائل لا يمكن ان تقدر مدى تأثيرها. والحقيقة

ان ترقى الشعور التنبهى كان الفضل فيه حتى الآن لقوى الطبيعة و لغريزة تختلف اختلافا يسيرا عن الغريزه المسيطرة على مولد الحيوان ونشأته .وسيتدخل فى ذلك يوما التفكير المستنير وسيصلح العلم عالم الغرائز وكثير مما نلحقه الآن بباب الغريزة سندرجه بباب التفكير

(أيدوكس)

سيضر ذلك بالفن

(تيوفراست)

لايخالجنى فى ذلك شك. والفن الراقى سيذهب. وسيأتى اليوم الذى ينظر فيه الى الفن على أنه اثر من آثار الماضى وانه من خلق العصور غير المفكرة وتحترم مكانته مع الاعتراف بانه قد لعب دوره. والنحت وفن البناء والشعر اليونانى قد وصلت الى هذه الحالة. وهذه العجائب فى ايامنا من المستحيلات وحتى اذا نجح احد فى الطبع على غرار القدماء فسيكون ما انتجه شيئا خاليا من الحياة لاضرورة لوجوده . وموقع فننا من هذه الآيات الفنية التالدة مثل موقع البناء المشيد بالاحجار من البناء المشيد بالرخام. وأيام النحت الزاهرة تصير معدودة من منذ اليوم الذى تمتنع الناس فيه عن المسير انصاف عرايا والذى يصبح فيه جمال الجسم شيئا ثانويا. والشعر الحماسى يذهب بذهاب عصر البطولة الفردية وليس للشعر الحماسى مكان بجانب المدفعية. وكل الفنون خلا الموسيقى متصلة بظروف واحوال قد خلت وحتى الموسيقى التى يمكن ان

نعتبرها فن القرن التاسع عشر ستنتهى مهمتها وينقضى شأنها ، وماذا يكون من أمر الشاعر والرجل الفاضل؟ ان الشاعر هو المعزى والرجل الفاضل هو خادم المريض ، وهذه وظائف نافعة لاريب ولكنها وقتية لانها تدل على وجود الشر ، هذا الشر الذى يؤمل العلم ان يذهب بقوته .

ورقى الانسانية ليس رقيا فنيا البتة ، والطبيعة تبلغ قصدها بالفضيلة والفن والعلم ، وبخاصة بالعلم ، وقد يأتى اليوم (ونحن الآن نرى فجر هذا اليوم) الذى يكون فيه الفنان الكبير والرجل الفاضل اشياء غبر عليها القدم . وبطل نفعها . بينما العالم تزداد قيمته ويرتفع شأنه . وسيختفى الجمال بقدوم العلم . ولكن تقدم العلم والقوة البشرية هما أيضا أشياء جميلة . وما الذى تعجز عنه الفسيولوجيا مثلا عندما تكون قد أحلت محل تلك الطريقة التجريبية التى تسمى الطب . ولا تزال مسألة التناسل والتربية خاضعة تقريبا للصدفة . ولم يؤثر فيها العلم بعد ، وتصور الثورة الاجتماعية التى ستحدث عند ماتتمكن الكيمياء بمحاكاتها فعل أوراق النباتات وامتصاصها اكسيد الكربون من الهواء من اكتشاف غذاء أرقى من ذلك الغذاء الذى تنتجه الخضروات والبهائم وسيأتى اليوم الذى لايرى الانسان نفسه مضطرا الى الذبح للقوت وان اليوم الذى يختفى فيه منظر وضم الجزار الكريه سيكون دليل رقى فى تهذيب المشاعر وما الذى سيحدث عندما يصير الانسان قبل كل شىء مسيطرا

على القانون الذى يسبب نوع الجنين وعندما يكون فى وسعه أن يطبق هذا العلم تبعا لارادته ؟ وهذه إحدى الاستكشافات القابلة للتحقيق فى المستقبل غير البعيد

فيلاليت

إنك تدنو الدنوكاه من رأى تيوكتنست . ومما يؤسف له أنه ليس هنا

ايدوكس

تيوكتنست يتطرف فى آرائه وهو يخطيء فى محاولته أن يصور صوراً دقيقة لمالا يمكن أن يدرك الا ادرا كا غامضا .ولكن اشعة من الضوء لاتنى تتطاير من ظلامه الدامس . وفضلا عن ذلك فانه جاد وجليل وبسيط ومخلص (ثم يلتفت الى فيلاليت) حاول أن تصحبه معك .

فيلاليت

سيكون هنا غدا .

(المحاورة الثالثة)

المتخيلات

فيلاليت . اتيفرون . ايدوكس . تيوفراست . تيوكتست

فيلاليت

أمضينا سحابة اليومين الاخيرين - ياتيوكتست - فى استجماع افكارنا عن غاية هذا الكون والمحرك الخفى له . ونعلم انك مثلنا تعالج امثال هذه الافكار وتساهم فى الهدوء العميق الذى تفيضه على النفس وقد كادت آراؤنا أن تستقر على أن غاية الكون هى العمل على إيجاد شعور مفكر أكثر تدرجا فى الكمال . ولسنا نعرف صورة لهذا الشعور المدرك المفكر أسمى من الانسانية . ولكن دون أن نفكر فيما يمكن أن يوجد فى الكواكب الاخرى فان خيالنا يجترىء على أن يكون لنفسه بعض أفكار عن ترقى شعور الانسانية المدرك فى المستقبل

تيوكتست

انا أذهب الى مدى أبعد من ذلك . وأطلق العنان لخيالى

ليتصور تاريخ ما يوجد وراء حدود الانسانية . وفى صورة تفوقها وتسمو عنها وبالاختصار فى أن أفرض أن للكون غرضا اسمى من الانسانية

فيلاليت

ابسط لنا أفكارك فى هذا الصدد

تيوكتست

أن هى الا احلام

ايدوكس

لو كتب كل انسان احلامه عن اللانهائى لظهر جانب من الحق خلال هذه الاحلام . ولكن قليلين من رزقوا مثل هذه البراعة

تيوكتست

ينبغى لنا قبل أن نخوض غمار هذا البحث أن نكون على جلية من معنى كلمة « الشعور » وليس من شك فى أن الشعور لا يكمل الا عند ما يتناهى فى ذاتية فردية ويتمركز فى جهاز عصبى مكون من مجموعة عصبية ومحرك لتركيب عضوى معين . ولكن يوجد مع

ذلك مجاميع من الاحياء ليست مشخصة على هذا النمط ، وان أمما
مثل فرنسا والمانيا وانكلتره ومدنا مثل اتينا وفينيسيا وفلورنسا وباريز
لتتصرف تصرف أفراد لها عقلها وميزتها الخاصة ومصالحها المحدودة .
ويمكن أن نتحدث عنها كما نتحدث عن فرد من الافراد ، ولها مثل
الكائن الحي غريزة خفية وشعور بالجوهر وحرص على صيانة النفس .
وهـذا الى حد أنه اذا تركنا أسلوب التفكير السياسي فان الامة
والمدينة يمكن أن يقارنا بحيوان بارع الحيلة بعيد الغور عندما يحاول
الاحتفاظ بكيانه وتأبيد نوعه ومثل هذا يلزم أن يقال عن الكنائس
والاديان وعن كل الجمعيات التي تكون مجاميع عضوية والتى تتصرف
تصرف الفرد وتسلك سلوكه وأعظم ما انتهت اليه الفسيولوجيا الحديثة
هو انها ترينا أن حياة النبات وحياة الحيوان ليست سوى مجموع
انماط أخري من الحياة قد تضافرت وانسجمت واندمجت فى
وحدة فذة . وحياة ذى الفقرات هى نتيجة تمركز فردية كل فقرة ،
والشجرة هى ائتلاف آلاف البراعم ، فكذلك الشعور هو نتيجة
تجمع ملايين المشاعر متجهة الى نفس الغرض ، وان الخلية هى
تمركز صغير شخصى ولكن عددا كثيرا من الخلايا ينشأ عنه
شعور من الدرجة الثانيـة (انسان أو حيوان) والشعور فى
الدرجة الثانية عند ما يتجمع يتكون منه شعور من الدرجة الثالثة
مثل شعور المدن والكنائس وشعور الامم الناشىء من انتظام

تفكرة واحدة لملايين من الاحياء واشتراكهم فى العواطف. والمادى لا يرى فى الوجود سوى الذرة. ولكن الفيلسوف الصادق والمثالى يرى أن الخلية أصدق وجودا من الذرة. وأن الفرد أصدق وجوداً من الخلية. وأن الامة والكنيسة والمدينة أصدق وجودا من الفرد. ومن ثم فان الفرد يضحى نفسه لاجل هذه الداتيات التى تعتبرها المادية الغليظة محض تجريدات

ويلوح لى أن الحب أقوى مظهر لهذا القانون الداخلى للحياة وأسطع برهان عليه. والحب لا يمكن تفسيره الا بأن شعور الذرات كائن من قبل. والفرد المراهق يحمل فى نفسه ملايين المشاعر الغامضة التى تتطلب الوجود وتشرئب اليه. وقد منحت الاحساس الغامض بالاحوال اللازمة لنمائها وزيادتها والتى تجعل الفرد يقاسمها رغباتها ونشاطها أحزانها: وأشد الناس تعلقا بالفضيلة لا يستطيع أن يمنع هذه الخلائق الجنينية التى تعد بالملايين من ان تصيح فى أعماقه صارخة « انا نريد الحياة » . وهؤلاء المخاليق الصغار — واسميهم الرجال الموجودين بالقوة — متحدون بذاتنا ومكونون لجزء منا وينظرون بعيوننا ويشعرون بحواسنا ويكونون حكما غريزيا عن الظروف التى يبرزون فيها من سجنهم ويقدمون الى الحياة

وهذا هو علة أن الحب ينفجر فى نفوسنا على غير ارادتنا. وليس فى طوقنا مقاومته وهو مبتوت الصلة بالاحساس الادبى ،

ولذا فان معركة الحب والواجب احدى المسائل الجوهرية فى الفن السامى ، لان هذه الخلائق الصغيرة لاتراعى الاخلاق ولم تقرأ ملتس وهى لاتطمح الا الى الوجود التام الحافل ،وهى لاتتدخل فى دقائقنا ولاتفهم وساوسنا الاجتماعية ولها آداب مستقلة عن آدابنا وقوانيننا ومن ثم الكفاح الناشب بين الفلسفة المجردة والتقدير الساذج الذى تقدره هذه الجراثيم الحية فى داخلنا والتى هي جزء منا والتى متى أرادت شيئا حملتنا على الرغبة فيه ، وبين الكائن المفكر الذى يتدبر نتائج عمله جنين الجنين الصغير الذى لايعرف الا الرغبة فى الوجود ، وهذا هو علة أن الذى ينبه الغريزة الجنسية فينا أشخاص لانراهم فى الغالب أهلا لتقديرنا لان المخلوق الجنينى لا يراعى إلا ما يلائم وجوده ، وهذا هو منشأ المشكلات الاجتماعيه التى لاتنقطع ، لان الزواج يستلزم التقدير الاخلاقى والحب النوعى وهما حالتان قد يلتقيان وقد يكون من الطبيعى أيضا أن لايجتمعان ، وتمكن أن نستنبط نفس هذه النتيجة — أى فردية الجرثومة — من قانون الوراثة والرجعى ، فان نماء الجنين فى أول أمره والطريقة التى يَفْتَضُهَا كل انسان للحياة هى ثمرة عادات وتجارب اكتسبها أسلافه ، وكل كائن قد عاش فى اجداده وخضع لسلوكهم ولبى رغباتهم وتأثر بالمشاعر الغالبة عليهم ، وان حفيد العبد لايزال محنى الظهر خافض الرأس ، والعبد العتيق يحيد بطبيعته عن

طريق من اخافوا اجداده ، والتواءات الغريزة الجنسية ليست سوى اخطاء الكائن الصغير المستسلم لدلائل واهمة فى حالات لم يدخل فيها العقل ليحسم الخطأ ويضع الامور فى نصابها

واذا بدأنا من هذه الفكرة انتهينا الى تصور شعور للانسانية فى المستقبل أسمى وابعد اصعادا فى الرقى مما هو موجود اليوم ، وستكون الانسانية فى ذيالك الوقت مثل الدوحة الهائلة براعمها الافراد قد اتحدت فيها المشاعر وتمازجت وتكون منها شعور شامل عام كما كان يقال عن الكنيسة فى باكورة امرها « المؤمنون قلب واحد وروح واحدة » والحكومة فى العصر الحاضر تعطينا صورة مشابهة لذلك لانها توجد مثلا اعلى للفن والعلم والخير وتنفق عليه من النقود التى جمعتها من دافعى الضرائب وجمهرتهم من الماديين والملوكية ترينا القومية متمركزة فى فرد أو اذا شئنا فى اسرة كبيرة وهى تصل بذلك الى أسمى درجات الشعور القومى اذ انه لاشعور يعادل هذا الشعور المنبعث من الذهن مهما كان الذهن عاميا . والفروض التى نتصورها عن صور هذا الشعور الالهى تنحصر فى ثلاثة أشكال . الشكل الملكى . والشكل الاوليجراشى (حكومة الاشراف) والشكل الديموقراطى . وذلك حسب تصورنا الشعور العام متجمعا فى فرد قد استغرق الجميع . أو محصورا فى

عدد قليل من الافراد يحكمون سائر الناس . أو موزعا فى الجميع بطريق الرغبة والتصويت

اتيفرون

هـذا ما يترك الالباب حائره ، فاسترسل فنحن مصغون اليك

تيوكتست

يظهر لى أن الحل الديموقراطى أبعدها عن التحقيق حسب نظام الافكار الفلسفية التى يروقنا الانغماس فيها ، وضعوا نصب عيونكم أننا على بعد الف فرسخ من السياسـة . ولكلماتنا هنـا معانيها الواردة فى تعاريفنا وتحديداتنا

اتيفرون

هذا مفهوم

تيوكتست

ولا يمكن أن نتصور اعتناق البشر كافة للعقل ودخولهم فى

حظيرته جميعا فأن الاكثرية الكبرى من الاذهان البشرية غير مستعدة لقبول الحقائق مهما قل نصيب هذه الحقائق من السمو. والنساء لم يخلقن لمعالجة مثل هذه الامور فحسب بل ان الاقبال عليها يشغلهن عن وظيفتهن الحقيقية وهى ان يكن خيرات أو جميلات أو أن يجمعن بين الصفتين وكون الامر كذلك ليس غلطتنا وليس غرض الطبيعة — ويلزم أن نعتقد ذلك — ان يعرف الناس كلهم الحق. وانما غرضها ان يعرف الحق بعض الناس، وان تحفظه بعد ذلك الرواية والسنة

والفكرة الديموقراطية فى نظر رجال الدين منقوضة من أساسها. فان صور الشعور مقدسة ولكنها ليست متساوية، فأين نقف ونضع الحد؟ ان للحيوان أيضا حقوقه وهل للهمجى الاسترالى حقوق الانسان أوحقوق الحيوان؟

إن العمل على رفعة الناس قاطبة هو أول واجبات المجتمع. ولكن رفع الناس كلهم الى مستوى واحد أمر مستحيل. ومادامت الدنيا كما هى فاننا لانستطيع أن نزعم أن هذا يعود عليها بعميم الخير. لأن الرجل الذى تعلم فى المدرسة ليس أسعد حالا لذلك. وهذا الوشل من المعرفة التى اكتسبها يفقده نضارة الفطرة ولايجنيه ثمرة التعليم العالى، وإذا بسطت الثقافة الباهرة ظلها على فريق من الانسانية فان الفريق الآخر يخدمها ولايأخذ إلا بنصيب محدود.

منها، وإنما المهم الجوهري هو أن توطد الثقافة الباهرة مركزها وتجلس على عرش الدنيا بأن تجعل الأوساط التي قل نصيبها من التثقيف تشعر بتأثيرها المبارك ، واذا تم ذلك فليس علينا أن نثقل على الآخرين ونرهقهم ونكرههم على أن يأتوا بأعمال اليقين ، وقد اخطأت الكنيسة في توهمها أنه من الصالح إرغام الناس على قبول صيغ لا يفهمونها ، وإنما سياسة العلم اذا استلم صولجان السيادة ستكون أشبه بسياسة الأسلام منها بسياسة المسيحية ، فان المسيحية عمدت الى الاضطهاد لأنها كانت تعتقد أن اليقين الديني يؤثر على الشخص تأثيرا حسناً — ولو لم يفهمه — وينقذه وينجيه مثل الحبة التي يبتلعها دون أن يعرف محتوياتها ، والأسلام على عكس ذلك . فانه قليلا ما كان يرغم الذين انتصر عليهم على قبوله . بل لم يعلق أهمية كبرى على اعتناقهم له ولا نرى أية فائدة كبرى في أن ينتسب للعلم من لا يفهمه وبحسبه أن يخدمه وينحني أمام قوته التي لا نزاع فيها . وماذا يعني اذا كانت الملايين من المخلوقات المحدودة الفكر التي يكتظ بها هذا الكوكب تجهل الحق أو تنكره مادام العقلاء ينظرونه ويكبرونه ؟ ولماذا نضايق الغير بتفكيرات لم نخلق لهم ؟ أن نظريات ابل وكوشي لا تفقد شيئاً مما فيها من الحق لأن فهمها مقصور على مائة شخص ؛ ويكفي لأمثال هذه الحقائق العالية

أن يراها عدد قليل من المفكرين وان تسجل فى الكتب ليعرفها من أراد معرفتها فى أحد الأيام ؛ وأن العقل والعلم من انتاجات الأنسانية ولكن أن نطلب العقل مباشرة لأجل الناس ومع الناس وهم من الأوهام وخيال باطل . وليس من الضرورى لوجود الحق وجوداً كاملا أن تدركه كل الناس ، وعلى أية الطرق فان نشر مثل هذا التهذيب العقلى — إذا حدث يوما ما — لا يتم على يد الديمقراطية الوضيعة ؛ وذلك لأنها — على العكس من ذلك — تهدد بمحو كل الثقافة العزيزة النبيل وكل ضروب التهذيب العالى ، والمثل الأعلى للمجتمع الامريكى هو أبعد المجتمعات عن المثل الاعلى للمجتمع الخاضع للعلم ، وفكرة أن المجتمع موجود لصالح الأفراد وحريتهم لا تأتلف مع مقاصد الطبيعة التى لا تحفل إلا بالأنواع وتضحى بالفرد ، وإنه ليخشى كثيرا أن تكون الكلمة الأخيرة للديموقراطية — حسب هذا الفهم — «ولو إنى أشعر بانه يمكن فهمها بشكل آخر » — حالة اجتماعية متدهورة لا غرض للقوم فيها سوى الانغماس فى الشهوات الوضيعة .

ايدوكس

حقيقة انه ليس من الامور الواضحة الوضوح كله لماذا خلق الله الدنيا لغاية حقيرة الشأن الى هذا الحد ، ولكن ألم يكن الاحسن اقناع الانسانية بدلا من خداعها وإخضاعها ؟ .

تيوكتست

نعم ، ولكن بطريق غير مباشر ، وباليقين بلا مرية ، أما الاقناع المباشر بالبرهان الناصع فهو من المستحيل ، ولقد اهتدينا إلى أفكار قليلة لم تسلم من النقص عن هذه البحوث الغامضة واقتضانا ذلك حياة ملأى بالتفكير ضحينا فيها بكل شيء وتركنا كل هم وألقينا عن كاهلنا كل مسؤولية بل ربما واجباتنا أيضاً ، فكيف نروم أن تصير مثل هذه الافكار شريعة الانسانية العامة

فيلاليت

هذا حق

تيوكتست

ومن ثم فكون الديمقراطية تحقق الله أمر قليل الاحتمال ؛ والديمقراطية الحزبية المتحاسدة هي تماما مايصح أن نسميه الخطيئة الدينية بطبيعتها . وذلك لان الغرض الذي تسعى اليه الدنيا وتكدح من أجله ليس هو انزال القمم العالية بل هو يلزم أن يكون على العكس من ذلك - خلق الآلهة والكائنات الاسمي التي ستعبدها سائر الخليقة وتخدمها وتجد لذتها في ذلك . والديمقراطية في هذا المعنى معارضة لفكرة الله . لان الله لم يرد أن يعيش الناس كلهم عيشة روحية متساوية ونحن لا نتعصب للنظام القديم لانه أخمد حرية الفكر وأرهق في أغلب الأحيان العلماء . ولكن ديمقراطية

بلا مثل أعلى لا تكون خيرا لهم منه . اما فى الحاضر فينبغى لنا أن نفضل الديمقراطية لانها أقل منافرة لحركة تقدم الروح من النظام القديم . ولكن الاسترخاء الذى تحدثه قد يكون وخيم العاقبة على مر الايام . والاخلاص التام لازم للعلم . ولذا لا ينبغ العلماء الفحول فى الامم المنتكسة الاخلاق أو الامم السطحية . والعالم ثمرة انكار كنفس ومجهود صادق وتضحية جيلين أو ثلاثة . وهو يمثل اقتصاداً للبيرا فى الحياة والقوة. ولا يمكن طائفة من العلماء أن تكمل صفوفها من داخلها . ويلزم أن يكون هناك شوائب لتخرج منها. والمسيح المخلص لا يظهر بين قوم عنانهم فى يد الانانية متهافتين على اللذات الوضيعة . ولا بد للمفكر ان يجد قوما يقومون بنصيبه من العمل والكدح ولو لم يقدروا عمله ولم يفهموه. وهل اعدى للروح من هذه الديمقراطية التى لا تقدر سوى ما تستطيع فهمه او بالحرى ما تتصور انها تفهمه؟ والتعليم الابتدائى سيقلل من نكران النفس لان هناك ما يبعث على الخوف من ان الذين تعلموا التعليم الابتدائى لا يميلون الى الاشتراك فى المحافظة على ثقافة اسمى من ثقافتهم . اى انهم لا يرغبون فى خلق اساتذة لهم

وموجز القول ان غرض الانسانية هو خلق العظماء. والعمل العظيم سيتمه العلم لا الديمقراطية ولا يمكن ان يتم شىء بغير العظماء ولا خلاص بغيرهم . وعمل المسيح ــ او المخلص ــ انما يضطلع

باعبائه الفرد لا الجماعة. واننا نظلم الامم التى لاتصنع سوى الاشياء الفاخرة ـ مثل فرنسا ـ والتى تنسج الحرير ولا تصنع الكتان العادى . وامثال هذه الامم هي التى تخدم الرقى اجل خدمة. والامر الجوهرى هو ان ننتج عبقريات كبيرة اكثر من الجماعات المستنيرة وان نخلق الوسط الذى يفهمها . واذا كان جهل الجماعات شرطا لازما لهذا ازداد الطين بلة . والطبيعة لا تتريث فى سيرها تلقاء هذه الاعتبارات . وهي تضحي انواعا برمتها لاجل ان تجد الانواع الاخرى الاحوال اللازمة لوجودها

وعلاوة على ذلك فان هذا النظام والتدبير الذى دبرته العناية ليس فيه ضحية فالجميع يخدمون غاية سامية . وفى القبضة من الحنطة التى ينثرها الزارع نثرا فانه حتى الحبوب الفاسدة لها نفعها واذا كانت المسألة هنا مسألة السعادة الشخصية فآه ! انا لا أدرى من الذى حرم من ميراثه؟ وان كل انسان سعيد فى مكانه . وأهل الدنيا ورجالها لهم آلاف المسرات التى ليست لنا . انهم يتسلون ويلهون. ومن منا لم يخالجه الحسد عند مروره بجماعة من البسطاء ؟ ومن منا لم يستمع الى اغانيهم الفرحة وقد أخذته الغيرة ؟

وهذا العالم السامى الذى نحلم به لتحقيق العقل الصافى لا يكون فيه نساء . فان المرأة ستظل مكافأة الوضيع يجد فيها حافزا للحياة. وهو فى ذلك ليس أتعس الناس حالة ولا أضيعهم مكانة

ايدوكس

عندما اصغي اليك اميل الى أن أقول مع ستربسياديس فى ارسطوفانيز « انك لن تقنعنى ولو أنك تقنعنى » . ونحن حريصون الحرص كله على أن نعرف ماذا تقصده بقولك الحل الاوليجراشى لمسألة الوجود.

تيوكتست

هذا الحل أسهل تصورا من الحل الديمقراطى . وهو يماشى أغراض الطبيعة الظاهرة فان فريقا مختارا من الاذكياء فى حوزتهم أهم أسرار الحقيقة سيحكمون الدنيا بالقوة المسخرة لهم وسيمدون سلطان العقل الى أقصى حدوده الممكنة.

ايدوكس

لقد انتهى تيوفراست أمس الى أفكار شبيهة بهذه الافكار

تيوكتست

ان أمثال هذه الافكار تطالعنا من كل الجهات . والتوسع فى فن الحرب سيجعل الحكومة العالمية ممكنة . وستكون هذه السلطة مستقرة بلا نزاع فى يد من يملكون هذه المعدات الحربية والترقى فى صناعة معدات الحرب سيؤدى الى عكس الديمقراطية. وسيكون اداة مناعة وتحصين للقوة لا للجماعات ، لأن المعدات الحربية العلمية لا يستطيع استعمالها الا الحكومات لا الناس. وفى

العصور الوسطى ضمنت حيازة الخيل العتاق وجيد الاسلحة التفوق المطلق للاشراف على الدهماء مدة قرون . ولقد أباد سبعة وعشرون فارساً جمعاً برمته من الفلاحين الثوار عند قنطرة السوق فى «ميو» فى يوم واحد . وقد كان نفع البارود فى أول أمره وقفاً على أغراض الملكية . وفى المستقبل ستوجد آلات تكون عديمة الفائدة فى غير أيدى العلماء الخبيرين باستعمالها . ومن هنا يمكننا أن نتصور الوقت الذى ستبسط فيه فئة من الرجال سلطتها على سائر الناس دون أن ينازعها أحد سلطانها وستوجد اذ ذاك فى عالم الحقيقة هذه القوة التى كان يعزوها خيال الناس للسحرة . وستتحقق اذن فكرة السلطة الروحية تلك السلطة القائمة على أساس التفوق الفكرى . ولقد حكمت البرهمية مدة قرون بفضل ايقاعها فى روع الناس ان البرهمى يستطيع بنظرة أن يصعق من يثير غضبه . وهذا الاعتقاد لقيامه على الخطأ والباطل لا يصلح ليكون أساساً مستوثقا . ولكن العلم قد يصل فى أحد الأيام الى قوة مشابهة لهذه القوة غير مشوبة بالباطل . وسيكون تفوق الوسائل التى بيده من القوة والضخامة بحيث لا تقوم ضده أية ثورة . ولقد كان للعقائد المسيحية مدة قرون القدرة على تحريق منكريها . فكذلك العلم سيبيد مباشرة من لا يدين بعقائده . ولقد حاولت الكنيسة فى العصور الوسطى أن تحقق القوة الروحية . ولكن لم يكن فى يدها القوة الكافية . ولذا ظلت ضعيفة مكرهة على الاستعانة

بلا انقطاع بالقوة الدنيوية التى كانت تملى عليها شروطها وتتطلب نظير ذلك انقاص الحقوق الاكليروسية. والقوة الروحية لاتكون قوية منيعة الجانب الا اذا كانت مسلحة وفى يدها قوة مادية لاتخضع الا لها. أى قوة لقهر أعدائها وتخضيد شوكتهم مثل القوة الوهمية التى كان يملكها البرهمي بالخوف الذى توحيه نظراته

ولقد كان فى يد الكنيسة عوضا عن الجيوش الرهيبة الخوف من النار . وقد كان سلاحا فعالا فى عصور اليقين والايمان . وبهذه الوسيلة بسطت سلطانها على البرابرة الذين استنفرتهم بعد ذلك لتنفيذ أوامرها واكتسبت لنفسها مكانة عالية . ولكن هذه الحماية فقدت كثيرا من قوتها عندما صار الناس لايخافون كثيرا من النار كما فقد البرهمي نفوذه لما صارت الناس لاتصدق بنظراته الغاضبة . ولا بأس فى أن اقول انى فى بعض الاحيان احلم حلما سيئا فاتوهم ان هناك سلطة سيكون الجحيم تحت نفوذها . الجحيم الحقيقى لا الجحيم الوهمى الذى لم يقم دليل قط على وجوده

ايدوكس

فى اى كابوس مفزع استسلمت لهذه الفكرة

تيوكتست

هل هى أشد هولا مما نراه باعيننا ؟ واستحالة الحرب الى خوف زاجر وتحريق الاسرى لا لأنهم ارتكبوا جرما وانما لايقاع الخوف

فى قلوب الناس ومنعهم من الدفاع عن أنفسهم — تلك النظرية التى اهملت من عهد « لوفوا » — تعلن الآن بصراحة ويعترف بها . وتقول هذه النظرية ان القسوة قوة وان لها فى الشؤون البشرية مزية لايمكن الاستهانة بها . وجهنم الكاملة من هذه الوجهة تعادل كتيبة من الكتائب لانها تثير نفس الخوف . ولقد عرف ذلك دوق الفا . وعرفه ايضا اجا توكل والقرطاجنيون الذين كانت القسوة جزءا من سياستهم . واذا تدبرنا الامور وجدنا أن القوة الموقوفة تحت تصرف الناس ليست سوى الخوف الذى يثيرونه. وهذا الخوف قد ينشأ من وعيد حقيقى او خيالى فالقوة والخادعة من هذه الوجهة نظيران. احداهما تقوم مقام الاخرى ولا تحتاج اليها ولقد أوقف قساوسة الغال نهب قبائل الفرانك وقتلهم الناس ايقافا فعالا بايقاعهم فى اخلادهم الخوف من القديس مرتن. ولكن الخرافات — على النقيض من ذلك — لا تجدى نفعا ازاء جنكيزخان أو تيمورلنك

(ايدوكس)

من خطل الرأى ان تطلق العنان لافكارك وتدعها تسرح فى هذه المسالك الوبيلة . الا ترى الى ان الحاسة الاخلاقية المتأصلة فى الانسان تجعل امثال هذه الفظائع المنكرة امرا مستحيلا وان للردة التى تصفها لا تجد لها معدات ؟

(تيوكتست)

لا تحرجنى والاشرحت لك فرضا يجعل كابوس احلامى امرا محتمل الوقوع . انى لم اقل قط ان المستقبل مفتر الباسم . ومن يدرى ان الحقيقة ليست محزنة ؟ والقوة لم تحتفظ بنفوذها على البشرية الا بالحيطة التى اصطنعها هؤلاء الذين فى يدهم زمامها فى جعل هجاجات الجماهير آلات عمياء مسخرة لاغراضهم . . والمستبدون ذوو الاغراض المادية الذين تحدثت عنهم ما كانوا ليترددوا لحظة فى ان يحتفظوا بنواة من الباشك او الكالماكس فى احدى مجاهل آسيا ويحرصوا عليها لتكون آلات خاضعة لهم الخضوع كله فلا تحجم عن ارتكاب كل ضروب القسوة ولا تعوقها الوساوس الادبية . ولا تنس علاوة على ذلك انى افترض تقدما ورقيا عظيما للشعور الانسانى وتحقيقا للحق والعدالة على صورة لم يعهدها الناس من قبل . وأنا افترض (وأظن انى على حق فى هذا) ان هذا التقدم يتم على يد ارستوقراطية فى طليعة الانسانية . وتكون هى مستودع عقل الجماعات . ومن الواضح ان حكم قسم من الانسانية لقسم آخر منها حكما مطلقا امر مكروه ومستنكر اذا افترضنا ان الفئة الحاكمة لا تحركها سوى المآرب الشخصية او الأنانية الحزبية . وإنما الارستوقرطية التى احلم بها سيتمثل فيها العقل وستكون بابوية لا يأتيها الباطل ولا يعرض لها الخطأ . وستكون القوة فى يدها قوة تدر الخير . ولا حاجة الى المساومة مع مثل هذه الارستوقراطية . وستكون هى القوة التى لها الحق بطبيعة الحال . اذ انها ستدعم آراءها

الحقة بالمخاوف الحقيقية. والبرهمي لم يصعق احدا ولقد اقام مذهبه الباطل على خوف لااساس له. ولكن الكائن الذى فى يده العلم سيوقف لخدمة الحقيقة خوفا غير محدود وستصير المخاوف باطلة النفع ، لان سواد الانسانية - بمقتضى هذا الفرض - ستملك عليه هذه الحقيقة مذاهبه. فتبطل نفس فكرة الثورة وسيصير الحق يوما هو «القوة» وإن قولهم المعرفة قوة هي أجمل ماقيل . وسيبصر الجاهل آياتها فيؤمن. وستدل النظرية على نفسها بتطبيقاتها العملية وان النظرية التى تبرز آلات رهيبة غلابة للجميع كاسرة لشوكتهم لتثبت صدقها بطريقة غير قابلة للنقض. وستكون قوة الانسانية محصورة فى يد عدد جد قليل. وستصير فى حوزة عصبة قادرة مسيطرة على حياة الكوكب. وهي تخيف بذلك الدنيا بأسرها . وفى اليوم الذى يملك فيه المحبوون بفضيلة العقل الوسيلة للقضاء على هذا الكوكب تستقر فيه سيادتهم. وهؤلاء الأشخاص الموهوبون سيحكمون بطريق بث الخوف المطلق لأن حياة الجميع فى قبضة يدهم . ونستطيع أن نقول بأنهم سيكونون آلهة . والعصر الدينى للانسانية الأولى الذى حلم به الشعراء سيصير حقيقة . ولقد كان الخوف هو أول باعث على خلق الآلهة فى الدنيا .

ومن ثم نستطيع أن نتصور عصرا تؤسس فيه القوة حكم العقل دون الركون الى الأكاذيب . فأن الكذب سلاح العاجز يصطنعه فى مكان القوة . وستصير عبادة العقل حقيقة لأن من يعمل على

مقاومتها — أى من لا يعترف بحكم العقل — سيقضى نحبه فى التو واللحظة وأى حماقة صبيانية كان هذا الاحتفال بالعقل المكون جيشه من قوم غير حصفاء نصيبهم من العقل طفيف وثباتهم ضعيف وجل سلاحهم الحراب ورديء البندقيات ! وعندما يصير العقل مكتمل القوة سيغدو هو الآلهة الحقة ، ولا يكون من الضرورى إذ ذاك أن نتحدث عن السلطة . فانه ليس لهذه الكلمة من معنى الآن سوى الدلالة على قوة الرأى وهى قوة غير فعالة ، بل هى مجرد أعوبة لفظية ، وستبلغ قوة العقل حينذاك أسمى درجاتها الآن كل من ينكرها يقضى عليه بالموت الوحى ، وستكون وسائل المقاومة غير مجدية لأن هذا سيكون تحقيقاً لما كان يتخيله الناس من قبل أنتقام الآلهة ، بل أن الحقيقة ستفوق الخرافة لأن انتقام الآلهة كان بطيئاً غير مؤكد ولا تام وكما نعرف الآن — خلوا من الصدق ، فى حين أن الدلائل على صدق القانون العلمى ستكون غير قابلة للخطأ وسريعة حاسمة وستكون مثل الطبيعة نفسها لانقض لأبرامها .

ايدوكس

أريد أن أحدثك عن اعتراض واحد بين آلاف الاعتراضات التى يمكن أن أوجهها اليك . إنك تفترض تقدماً عظيماً للعلم وأنت على حق فى ذلك ، ولكنك لم تتحدث عن حالة الأنسان

المفكر . وان ترقى العلم والقوة الذى وصفته ليفوق مافى طوق العقل البشرى . وهناك تناقض بين انتصارات العقل التى تتصورها وبين الاستعدادات الفكرية والعضوية المحصورة على الدوام

تيوكتست

لقد قلت لك أن الافكار التى أعالجها الآن لا تنتسب كل الانتساب الى كوكبنا الارضى والواجب أن نعرف أن مثل هذه الافكار ترمي الى ما هو اسمي من الانسانية . ولا شك فى أن الشخص المفكر العارف سيكون ابدا محدودا ، ولكن المعرفة والقدرة غير محدودتين ، ومن ثم تستطيع الطبيعة المفكرة مضاعفة قوتها دون أن تتخطي حدود البيولوجيا ، وأن التطبيق الشامل لمستكشفات الفسيولوجيا ولنظرية الانتخاب يمكن أن يؤدى الى خلق شعب سام يكون له حق الحكم لا عن طريق العلم فقط بل بنفس التفوق فى الدم وفى الذهن والاعصاب ، وستوجد حينذاك مخلوقات تعادل قيمتها عشرة أضعاف قيمتنا . وتستطيع أن تعيش فى وسط صناعى ، والطبيعة تصنع الشيء ليعيش فى الأحوال العامة ولكن العلم يمكنه أن يمد حدود القابلية للحياة ، ولقد عملت الطبيعة الى هنا كل ما تستطيعه ، وقواتها المرسلة على سجيتها لا تتجاوز هذا الحد الذى بلغته ؛ وعلى العلم أن يتولى العمل حيث تركته الطبيعة ، والعالم النباتى يحفظ بالطرق الصناعية خضروات سرعان

ماتختفى اذا لم تتعهدها يد الانسان ، ومن الممكن أن نتصور عصرا يقوّم فيه ايجاد الآلهة بمبلغ محدود يشمل ثمن الجهاز النفيس والمجهود البطيء والانتخابات الشاقة والتربية المعقدة وصيانة مثل هذا المخلوق ضد الطبيعة ، وقد ينشأ مصنع لعمل الآلهة فى وسط أسيا ، واذا كان أحد من الناس يمقت هذا النوع من الاساطير فلينظر الى تصرف النمل والنحل فى تحديد الوظائف التى يوقف كل فرد منها لها حياته ، ولينظر الى الوسائل التى يصل بها النباتى الى خلق النوادر الصناعية ، وسر هذه الشواذ فى التغذية أو بالحرى فى انماء عضو من الاعضاء بتعطيل عضو آخر ، ولنذكر هنا هذا الاستاذ الفيدى الذى اسمه — حسب مايقول برنوف — « من ذهبت مادته المانوية الى رأسه » ، وكما أننا نحصل على الزهرة المضاعفة بالزيادة فى التغذية أو بنقل اعضاء التناسل اذان التزهير والاثمار يستنفدان الحيوية فكذلك قد توجد يوما الوسائل لحصر كل قوة الاعصاب فى الذهن بايقاف الطرف الآخر وتعطيله اذا ساغ لنا القول ، وهذه الوظائف يضعف بعضها البعض . لان الممنوح لواحدة منتزع من الاخرى ، ولا حاجة للشك فى أننا لا نتحدث هنا عن هذا البتر المخجل الذى لا ينشأ عنه سوى مخلوقات ناقصة ، وانما نتحدث هنا عن نقل داخلى نستطيع به أن نوجه الى غاية واحدة القوى التى صرفتها الطبيعة فى شؤون مختلفة ،

ويمكننا أن نتصور (خارج هذا الكوكب من غير شك) امكان وجود كائنات بينها وبين الانسان من البون مثلما بينه وبين الحيوان ، وعصرا يتبدل فيه العلم من الحيوانات الموجودة باخرى ارقى منها كما استعاضت الكيمياء عن طائفة من المحصولات الطبيعية بطائفة اخرى اكمل منها ، وستخرج الآلهة من الانسانية كما خرجت الانسانية من الحيوانية ، وستوجد كائنات تستخدم الانسان كما يستخدم هو الحيوان ، وقليلا ما يستوقف فكر الانسان ان خطوة واحدة منه ومجرد حركة تسحق عشرات الآلاف من الدويبات ؛ ولكنني أكرر ان التفوق العقلي يستصحب التفوق الديني ، وسيتمثل في سادة المستقبل الحق والصلاح وسيكون في الخضوع لهم سرورا ايما سرور

وان مسألة عدم تساوي الشعوب وصحة الحقوق التي يخولها التفوق الشعبي هي أشد ما تنكره الديموقراطية ، والديموقراطية لا تعمل على اعلاء الشعب وانما ترمي الى الاسفاف به وهي لا تريد العظماء ، ولو كان حاضر امرنا ديمقراطي وسك مسمعه حديثنا واهتمامنا بترقي الوسائل لخلق سراة للناس لعرته الدهشة ، والحقيقة انه من السخف والجور ان ترغم الناس بنوع من الحق الالهي على قبول سادة ليسوا اسمى منهم في الكثير ولا في القليل ، واشراف الوقت الحاضر في فرنسا لا شأن لهم ولا خطر لان ثلاثة ارباع

القاب الشرف مغتصب ، والربع الباقى — اذا استثنينامنه ما يكاد يقرب من العشرة — مستمد من الانعامات الملكية لا من الفتح، فهى لاتدل على شئ من التفوق الشعبى كما هو الاصل فى النظام الارستقراطى ،ولكن هذا التفوق الشعبى يمكن أن يصير حقيقيا، وتكون اذن الارستقراطية حقيقة علمية صادقة غير منكورة مثل تفوق المتمدين على الهمجى المتوحش او مثل تفوق الانسان بوجه عام على الحيوان

وعلى هذا النسق يمكن ان نتصور عصرا قد صارت فيه كل سلطة كانت قائمة قديما على الوهم والرأى الواهى متينة الاساس صادقة ،ووجود الانسان والعقل سينفخ حياة جديدة فى الآلهة والجنة والنار والقوة الروحية والملوكية والارستقراطية وحق التفوق الشعبى وقوات مافوق الطبيعة ، ولو تحقق مثل هذا الحل إلى أى حد على وجه الأرض لكانت ألمانيا هى التى تحققه حسب مايظهر لى .

ايدوكس

أتقصد بذلك الاطراء أم النقد ؟

تيوكتست

فسره حسبما تشاء ، إن فرنسا دائماً تميل الى الحلول الحرة الديمقراطية ، وهذا هو فخارها ، ومثلها الأعلى هو سعادة الناس وحريتهم ، فاذا كانت خاتمة الاشياء هى ان يستمتع الافراد فى

هدوء بحياتهم المحدودة — وهو أمر محتمل بعد كل شيء — فان فرنسا الحرة اذن على حق . ولكنها ليست البلاد التى يتم فيها التوازن والانسجام أو اخضاع الشعور العام الذى تحدثنا عنه . واما اذا جاء الامر على عكس ذلك وكان للعقل أن يحكم الدنيا فسيكون ذلك أكثر ملاءمة لعبقرية ألمانيا التى تبدى اهتماما قليلا بالمساواة وبقيمة الفرد والتى ترمى الى انماء قوى الشعب الفكرية قبل كل شيء.

اتيفرون

لقد غاب عنك أن فى عصر الآلهة المتباعدة سيكون قد انقرض منذ زمان بعيد الفرنسيون والسلاف والجرمان . وستكون هذه التنوعات الاقليمية الحقيرة قد محيت من ذاكرة التاريخ نفسه

تيوكتست

أريد أن أكون من الانسانية الموجودة صورة موجزة للمعارك العظيمة التى ستقع فى المستقبل

ايدوكس

ولكن ألا ترى الى أن الناس سيشعرون باستفحال أمر سيدهم ويبصرون الخطر الذى يتهددهم ويأخذون حذرهم

تيوكتست

لا يخامرنى الريب فى ذلك ، واذا كان لهذه الافكار التى تتبع ظلها أن تتحقق يوما فستحيق بالعلم ضروب من الاضطهادات.

وبخاصة الفسيولوجيا والكيمياء وستكون هذه الاضطهادات من الشدة بحيث يصغر الى جانبها أمر مجلس التفتيش ، وسيناصبها العداء جمهور البسطاء السذج يحدوهم على ذلك غريزة عميقة ؛ وسيعود العلم من جديد الى اللواذ بالمخابئ والاكنان ؛ وقد يأتي على الانسانية عصر يعرض فيه كتاب في الكيمياء صاحبه للخطر كما كان في العصور الوسطى ، وأشد اللحظات خطرا في حياة كوكب من الكواكب هي اللحظة التي يرفع فيها العلم النقاب عن آماله ، وستنبعث اذ ذاك مخاوف وتنفجر ثورات هادمة للعقل وربما قد أدرك البوار في مثل هذا المأزق الضنك آلاف الانسانيات ؛ ولكن لابد ان تخرج انسانية واحدة سالمة من هذه الغمرة وبذلك ينتصر العقل.

والحاجة في هذه الحالة هي أحسن الضمانات ؛ والانسان لا يمكنه أن يستغني عن العلم ؛ ففي العصور المنحطة ـ مثلا في العصور الوسطى ـ كان الطب هو نصير الروح العقلية ؛ لان المريض يريد الشفاء باى ثمن ؛ ولا يتيسر ان يتم شفاؤه بدون قليل من العلم ، أما في الوقت الحاضر فان الحرب والآلات والصناعة تستلزم العلم إلى حد أن الاشخاص الذين يعملون على مقاومة الروح العامية يضطرون إلى تعلم الرياضة والطبيعيات والكيمياء ؛ فالعلم يبسط سيادته حتى على أعدائه.

(أيدوكس)

ان افتراضك انتصار الحكم الاوليجراشي للعقل يجعلك تتصور

صورا سوداء ، ولماذا لا ترى أن قدوم انسانية أسمى يعود بالنفع على الجميع وأن نفس هذا التفوق ناشيء من أن المزايا أقل توزعا مما هي في هذه الدنيا المحزنة ، لان الانسانية قد تجمعت برمتها وتقدست في طراز فذ فاخر ؟ ولكني سأنتظر بفارغ الصبر لاسمع ما تقوله عن تصورك لمستقبل العالم إلى الملكي وآمل أن يكون أكثر عزاء للانسان لاني أشعر بأني في حاجة أب سماوي لينقذني من جحيمك

(تيوكتست)

ما اجمل قول القديس بولس « قد يكون الله هو الكل في الكل » وأبدع منه قول زينوفون قبله بستمائة سنة « أنه يرى كالجميع ويفكر مثلهم ويسمع مايسمعون » ومثل هذه الصيغة لم تتحقق في العصر الحاضر ، ولكن الحل التوحيدي الذي يكون فيه الكون بحذافيره مشاعر كائن واحد وإحساساته وملذاته سوف لا يكون مستحيلا إذا راعينا لانهائية المستقبل ، وقد مثلت لنا فرنسا في عصر لويز الرابع عشر صورة مملكة كل جهودها متجهة إلى إخراج حياة ألاقة فاخرة مكتملة النواحي هي حياة الملك ، وكانت كل الوظائف الاجتماعية منظمة تنظيما قد روعي فيه فخار الملك وملذاته ، ونستطيع أن نتصور حالة للدنيا ينتهي كل شيء فيها الى مركز شاعر بنفسه وينحصر الوجود في موجود مفرد يتحقق به تصور الوحدانية الذاتية ؛ وقد تكون نهاية التطور الآلهي هذا الموجود العالم بكل

شيء والقادر على كل شيء سواء تصورناه ينعم بالجميع (والجميع أيضاً ينعمون به) كما يتصوره متصوفة المسيحيين أو تصورناه فردية قد اعتلت ذروة القوة أو تصورناه خلاصة آلاف الملايين من الكائنات والتوازن والمحصول النهائي للكون

وهكذا يبلغ الكون الكمال في فرد قد تلاقت في لانهائيته ملايين لا تحصى من الحيوات : حيوات الذاهبين والحاضرين ، والطبيعة الحية بكليتها ستتضافر في خلق حياة متمركزة هي ترنيمة مؤتلفة من آلاف الملايين من الاصوات مثل الحيوان الناشيء من ملايين الخلايا العضوية ومثل الشجرة المكونة من ملايين البراعم وسيكون هذا الشعور الأوحدى من عمل الجميع والكل سيأخذون بنصيبهم منه ، وسيكون الكون مثل كثير الارجل اللانهائي قد التحمت فيه كل الكائنات التي وجدت ، وكل واحد منها يحيا لنفسه وللجميع معاً ،

ونحن الآن نشارك في حياة الكون (وهي حياة لم تبلغ الكمال بعد) من طريق الآداب والعلم والفن ، والاديان هي الصورة المختصرة العامة لهذه المشاركة ، وهذا هو سر قداستها ؛ ولكن الطبيعة نزاعة الى تآلف أمتن ، وهذا التآلف لا يبلغ غايته إلا عند ما يجيء هذا الكائن الكامل ، وهذا الكائن لم يوجد بعد لان لنا ثلاثة طرق للتأكد من وجود الكائن وهي اما أن ننظره أو نسمع الناس تتحدث عنه أو أن نشاهد أعماله ، ولم يعرف كائن كالذي

نتحدث عنه باحدى هذه الطرق الثلاث ؛ ولكننا نستطيع أن نتصور امكان وجود حالة يعيش فيها كل شيء فى لانهائية المكان، أما فى العصر الحاضر فان جزءا قليلا من المادة قد انتظم تركيبه وتكاملت عضويته وحتى هـذا الذى كمل تركيبه قد تماسك تماسكا واهيا ، ولـكننا يمكننا أن نتصور عصرا قد تكامل فيه تركيب كل المادة وتم تماسكها والتحمت فيه آلاف الشموس وتضامت فتكون منها كائن اوحد يشعر وينعم ويلتهم بلهواته الحارة الملتهبة نهرا من المسرات والمتع التى قد تتدفق منه شؤبوبا من الحياة .ومثل هذا الكون الحى سيمثل طرفى وجود كل تركيب عضوى .وهما الطرف الذى يفكر والطرف الذى ينعم. اما الآن فان الـكون يفكر وينعم خلال ملايين الافراد؛ ولكن سيجىء يوم فى المستقبل يتذوق فيه بشهية فم ضخم اللانهائى، وسيتدفق اليه محيط من السرور المسكر ؛ وسيندفع الى الابدية أنى حياة لانفادلها غير شاعرة بالراحة ولا بالكلال؛ ولتجميد هذه المادة الالهية قد تؤخذ الارض وتجص كالمدر الذى يعجنه الناس دون ان يفكروا فى النمله أو الدودة المختبئة به، وكـذا الامور ؛ونحن نفعل نفس هذا الفعل،وغرض الطبيعة فى كل خطوة من خطواتها هو ان تنال غاية أسمى بتضحية الفرديات الدنيئة ؛ وهل يعبأ القائد أو رئيس الحـكومة بحياة المسـاكـين الذين يضحى بهم ؟

وان وجود كائن فرد قد اجتمعت فيه كل مناعم الـكون يشد

ازره عدد لانهائى من الافراد تستشعر السرور فى ذلك . أقول ان وجود مثل هذا الكائن لاينافرسوى فرديتنا السطحية. وليست الدنيا سوى سلسلة من الضحايا البشرية ويمكن تلطيف الم التضحية بالسرور والاستسلام . ولقد كان أصحاب الاسكندر يعيشون على الاسكندر وينعمون بالا سكندر . وقدمرت بالمجتمع احوال كا نت تنعم الناس فيها بلذات اشرافهم ويجدون فيها سرورهم ويقولون «امراؤنا» ويجعلون مجد امرائهم مجدالهم وأن الحيو انات التى يتغذى بها الرجل العبقرى أو الرجل الفاضل ينبغى لها ان تكون مغتبطةفرحة اذاعامت الخدمة التى تؤديها . والامور بخواتيمها فاذا صار من الضرورى فى احد الايام الاكثار من عمليات تشريح الاحياء لاستكشاف اسرار الطبيعة الحية العظيمة فانى اتخيل مخلوقات آتية مكللة بالازاهير لتقدم نفسها وقداخذتها نشوة التضحية وبذل النفس. وان قتل ذبابة بلا فائدة عمل حقيق باللوم. ولكن الذى يضحى لغايات مثالية ليس له حق فى الشكوى ومصيره ازاء اللانهائى جدير بان يحسد عليه . والكثيرون يقضون نحبهم دون ان يتركوا اثرا فى تشييد برج الابدى . وان تضحية كائن حي من اجل أنانية آخر لعمل مستنكر. ولكن تضحية كائن حي لغاية تريدها الطبيعة تضحية عادلة ، واذا توخينا الدقة فان الرجل الواقع فى قبضة الا نانية يأتى عملا وحشيا أكله

اللاحم؛ وانما الرجل الذى يبذل قصارى جهده فى الخير والحق هو الذى يملك هذا الحق ، لأن التضحية هنا مبذولة للمثل الاعلى ، والكائن المضحي به له مكانه الصغير فى العمل الخالد الباقى وهذه مرتبة يقصر عن نيلها الكثيرون ؛ وقد كان السلف الصالح يعتبرون ذبح حيوان للاكل والتغذية عملا دينيا ، ومثل هذا الذبح الذى تدفعنا اليه ضرورة مطلقة كان فى رأيهم ينبغي أن يستر أمره ويغطى على حقيقته بباقات الازاهير والاحتفال الدينى

ويجب أن تفكر الاكثرية وتستمتع بالحياة بطريق الانابة والتفويض ؛ وان فكرة العصور الوسطى فى صلاة الناس لمن لا وقت عندهم للصلاة لفكرة عادلة موفقة؛ لأن الاكثرية منهمكة فى العمل والاقلية تؤدى عنها تكاليف الحياة السامية ؛ وهكذا الانسانية ولقد كانت نتيجة العمل الغامض الذى قام به آلاف المزارعين من خدمة دير من الاديار معبداً صغيراً على الطراز القوطي وسط واد جميل تظلله أشجار الحور الفارعة يتيممه الاتقياء البررة ست أو ثمانى مرات فى اليوم ليتغنوا اناشيد الابدى ؛ وكان هذا أسلوبا بديعا فى العبادة ولاسيما عندما كان بين المتنسكين مثل القديس برنارد وروبير دى توى والاب يواكيم، وقد كان هذا الوادى وتلك الامواه وهاتيك الإشجار والصخور تود أن تهتف باسم الله ولكنها كانت خرساء فمنحها الدير مقولا؛ أما اليونان وهم شعب اعرق فى النبل فقد

كانوا أبلغ أداء لذلك وافصح عنه تعبيرا بالقيثارة والعاب الرعاة ، وسيكون ذلك أسمى فى أحد الايام عندما يخلف الدير معمل كيمياء او طبيعة ، ولكن فى أيامنا هذه فان آلاف المزارعين الذين كانوا فى الايام السالفة عبيدا ونالوا حريتهم قد انطلقوا من اجل ذلك الى المناعم المقيتة دون ان يخدموا المثل الاعلى فى نفس الارض التى اقيم فيها المعبد السالف الذكر ، ولا يطهرهم قليلا سوى الضريبة المفروضة على الارض لانها تجعلهم ينصرورن غرضا أسمى

ولابد أن يعيش البعض للكل . ولو غير ذلك لأقفرت الدنيا من الناس ، والمصرى من رعايا الملك شفرم الذى جاد بروحه وهو يبنى الاهرامات قد قضى حياة افضل من الذى أمضى حياته سدى تحت اشجار نخيله وهذا هو أساس مجد الناس وهم لا يتطلبون غيره ، والانانية لا تقنعهم أبدا ، وجل غرضهم أن يجتنى غيرهم الثمرة أذا حرموا هم من اجتنائها وهم يقدمون على الموت راضين لاجل مجد رئيسهم . أى لشىء لا يعود عليهم بالنفع المباشر . وانما اتكلم هنا عن الناس بمعنى الكلمة أى عن الشعب غير المفكر المستسلم لغرائزه والذى لم يعامه التفكير بعد ان اكبر حماقة يمكن ارتكابها هى أن يعرض الانسان نفسه للقتل لاية غاية كائنة ما كانت

وانى فى بعض الاحيان اتصور ان الله هو العيد الداخلى العظيم للكون وانه ذلك الشعور المترامى الفياض الذى تنعكس فيه

كل الاشياء ويتجاوب صداها . وكل طبقة من المجتمع انما هى دواليب وذراع رافعة فى هذه الآلة الضخمة . ومن ثم كان لكل انسان فضائله ونحن كلنا وظائف للكون . والواجب هو أن يقوم كل منا بعمله خير قيام . وان فضيلة الشعبى لا يجب أن تكون هى فضيلة النبيل . وما يكمل به السيد الماجد قد يكون نقصا وعابا فى الرجل من دهماء الشعب . وفضيلة كل طبقة قد فرضتها مستلزمات الطبيعة . والحكومة التى لاتوجد فيها طبقات اجتماعية انما هى خارجة على العناية . ولا يعنينا فتيلا ان القديس فنسنت دى بول لم يكن كبير الروح وما كانت استقامة السلوك لترفع من شأن رافائيل . والقوة القدسية المستقرة فى الجميع تتجلى فى اهل الصلاح والاستقامة وفى الفنانين والعلماء . ولكل دوره الذى يلعبه . ولقد كان واجب جيتى ان يكون أنانيا لاجل عمله . وان لا ادبية الفنان السامية هى نفسها ضرب من ضروب الفضيلة السامية اذا كانت تساعد على انجاز مهمته الالهية الخاصة الموكولة الى كل انسان فى هذه الدنيا

اما انا فانى اتذوق الوجود قاطبة بمثل هذا الشعور العام الذى يجعلنا مثقلين بالحزن فى المدينة الحزينة ومنشرحى الصدر فى المدينة الفرحة ، وأنا بذلك اقاسم الشهوانى شهواته والخليع المتنعم خلاعاته والدنيوى دنيويته ، واشارك الرجل الفاضل فى طهارته

والعالم فى تأملاته والناسك فى شدته وصرامته ويخالجنى نوع من العطف الرقيق المستعذب فاخالنى شعورهم ، وان استكشافات العالم ملكى ونصيبي ، وانتصارات الطموح عيد لى ، وسيغمرنى الحزن اذا شعرت الدنيا باى نقص وحاجة لانى شاعر بكل ما فيها ، وهمى الوحيد هو أن الجيل الحاضر من الانحطاط بحيث لايعرف كيف يستمتع ، ومن ثم ألوذ بالماضى — بالقرن السادس عشر و بالعصور القديمة فكل ما كان جميلا محببا عادلا نبيلا هو جنة لى . وانا بهذه الفكرة أتحدى الكوارث ان تلم بساحتى . وأنا احمل معي الحديقة الساحرة من افانين افكارى

(فيلاليت)

لقد حاولت ان تظهر الصور التى يمكن ان نتصورها عن شعور عام للكون اسمى من الشعور الذي تمثله الانسانية . وقدقيل لى انك تعرف طريقة تجعل خلود الافراد امراً ممكن تصوره

(تيوكتست)

الاحسن من ذلك ان تقول « بعث الافراد » وأنا فى هذا الصدد أخالف تصورات برعت فيها العبقرية اليونانية . وان كانت هذه التصورات رائعة من ناحية الشعر والمثل الاعلى . وفى اعتقادى ان افلاطون لا يلتفت إلى رأيه عند مايذهب الى ان الموت خير وأنه الحالة الفلسفية بطبيعته ، وليس فى الحق ماقاله فى « فيدون » ان كمال

الروح هو فى الانفلات اشدما يمكن من البدن، والروح بدون جسم وهم وخيال لانا لم نرقط هذا الطراز من الوجود

نعم انى اتصور امكان البعث ، وانا اقول على الدوام مع ايوب «ان هذا الامل كامن فى صدرى» واذا حدث فى آخر ادوار التطورات المتعاقبة أن جمع العالم فى واحد صمد فان هذا الكائن سيكون هو الحياة الكاملة للجميع وسيبعث فى نفسه حياة الكائنات الذاهبة ، او اذا كنت تؤثر ذلك ـ ان كل ما وجد سيعيش فى صدره، وعندما يجمع الله بين الكمال والقدرة الغامرة ، أى عندما تجتمع القدرة على كل شيء العامية فى يد كائن خير مستقيم فان هذا الكائن ستتجه رغبته الى احياء الماضى ليمحو ما به من مظالم ، والله سيوجد ، وسيزداد وجوده تحقيقا واستقراراً ، وكلما عظم نصيبه من الوجود ازدادت عدالته ، وسيبلغ ذروة الكمال فى اليوم الذى يشعر فيه كل من اعان على اتمام العمل المقدس انه تم ويرى الجزء الذى أتمه منه، وحينذاك ستظل عدم المساواة الابدية للكائنات مختوما عليها الى الابد، فمن لم ينصح للخير والحق سيلاقى فى هذا اليوم جزاء وفاقا لاجترائه ؛ فلا ينال شيئا ، ولا يجب ان يعترض على ذلك بان المكافأة التى تجيء بعد ملايين السنين مكافأة قليلة القيمة فانه سواء رقاد ساعة ورقاد ملايين السنين . واذا منحت لنا هذه المكافأة التى أصورها لنفسى فستبدو لنا كأنها جاءت عقب ساعة الموت . وإن

أنسب كلمة تكتب على قبر عاشق المثل الاعلى أو على قبر المسيحي هي كلمة « ينتظر بعثاً مباركا »

والدنيا بدون الله شيء شديد الفظاعة والنكر . وهي كذلك تتراءى لنا في هذه الايام . ولكنها لاتدوم على هذه الحال . وبعد فترات القساوة والأنانية التي تعرض للموجود السائر في طريق الرقي ربما سيتحقق حلم ديانة الوحدانية فيظهر شعورسام ينصف الضعفاء وينصر الصالحين . وإن الالهي يقول « هذاواجب الوجود ولذا وجد » أما نحن فنقول « أنه إذن سيوجد » ولهذا التعليل نصيبه من الحق لأننا قد رأينا أن أحلام الشعور الأخلاقي يمكن أن تتحقق يوماً ما . ويمكننا إذنأن نتصورشعوراًعاماقداستغرق الجميع حتى السابقين ، وسينظمهم بمقدار ما أدوا للخير والمطلق من خدمات ، ولكل حجرقيمتهفي اهرام الخير الذى رفعته جهود الكائنات المتواترة ، ولايزال المصرى فى عهد الملك شفرم الذى تحدثنا عنه منذ قليل موجوداً فى الحجر الذى وضعه ، وكذلك سيكونشأن الرجلالذى اشترك مع غيره في عملالأبدية ، ونحن نحيا بقدر الجزء الذى قمنا به فى ابتناءالمثل الاعلى ، وعمل الانسانية هو الخير ، والذينعملوا على انتصارالخير سيضيؤون مثل النجوم . وحتى إذا كانت الارض فى احد الايام لاتصلح إلا لتكون لبنا لبناء عمارة فى المستقبل فاننا سنكون ماتكونه القشرة الجيولوجية

فى كتلة الحجر المعدة لا بتناء معبد ، وهذا الثلاثى الفصوص الحقير الذى نرى آثاره مسطورة فى سمك حيطاننا يحيا هناك بمقدار ضئيل . إذ يكون جزءاً من مسكننا

ايدوكس

الخلود الذى تتصوره خلود صورى لايتجاوز أبدية العمل . ولا يدل على خلود الشخص ، وإن تأثير يسوع اليوم لأعظم بكثير من تأثيره عندما كان جليلياً غامض الشأن ، ولكنه مع ذلك ليس من الاحياء

تيوكتست

إنه لايزال حيا ، وشخصيته لاتزال باقية ، بل هى أعظم مما كانت وأن الانسان ليحيا حيث يعمل ، ومثل هذه الحياة أنفس من حياة الجسد لأننا نضحي بالثانية للأولى ، ولا يعزب عن فكرك إننى لا اتحدث هنا عن الحياة فى احترام الغير وتقديرهم أو فى الشهرة والبقاء فى الذاكرة فان مثل هذه الحياة ليست فى الحقيقة كافية ، بل هى عرضة لالوان من الغبن ، وخير الناس هم من تجنبوها ، وتيمور لنك ابعد شهرة من كثير من الصالحين المجهولين ، ولم ينل مرقس اورلياس قسطه الذى يستحقه من الشهرة الا لانه كان امبراطورا و كتب تأملاته والتأثير الصادق هو التأثير الصامت المستخفي ، وليس معنى ذلك ن حكم التاريخ باطل فى باطل وإنما هو مخطىء الخطأ كله فى النسبة وربما

كان بين المجهولين من هو أعظم من الاسكندر ، وربما كان قلب
المرأة التي لم تقل طول حياتها كلمة قد احس أحسن من شاعر تغنى
ارق الاشعار واعذبها . وانما اتحدث هنا عن الحياة من ناحية
التأثير . أو كما يقول المتصوفون عن الحياة في الله وان الانسان
ليخلد ببقائه في ذاكرة الله والمكانة التي يشغلها الرجل الفاضل في
الاحساس المطلق وذكراه التي يحتفظ بها هي الحياة الصادقة ،
ومثل هذه الحياة خالدة باقية ، ولا مرية في انه من التشبيه ان
تنسب الى الله صفات شعور مشابهة لشعورنا ؛ ولكن استعمال
الفاظ المشبهة في الفقه امر لا محيص عنه ، وليس فيه من الضرر
اكثر مما في استعمال اى مجاز او استعارة ، وسيمتنع علينا التعبير
باللغة اذا غالينا في التدقيق

(ايدوكس)

هذا مفهوم ، ولكنك لم تفسر لنا كيف يمكن ان تتحدث عن الوجود
الحقيقي بدون شعور مدرك

(تيوكتست)

ربما يكون الشعور المدرك صورة ثانوية للوجود. ولسنا نفقه
معنى لهذا التعبير عندما نطلقه على « الكل » و« الكون » و« الله ».
والشعور المدرك يستلزم وجود حد. ومعارضة بين الانا واللاانا. وهذا
ينافي اللانهائي وان الابدى هو الفكرة. والمادة شيء نسبي من كل الوجوه.

وليست فى الواقع هى الشىء الكائن . وانما هى اللون الذى يستخدم فى التصوير والرخام الذى يستعمل فى النحت والصوف المستعمل فى التوشيه والتطريز. ولا يمكن انكار القدرة على ايجادما كان من جديد . ورد كل ما تم وقوعه. ولا اتريث فى ان اقول بان كل تأكيد فى هذه المسائل هو ضرب من اليقين، واليقين يتجاوز حدود التجربة والمشاهدة ولست اقول انه يناقضها، ولكن بعد كل ذلك هل املنا متنفج وهل رغبتنا مغرضة ! لا وحاشى لله ان تكون كذلك ، ونحن لا نطلب مثوبة وانما نريد ان نكون وان يتسع مجال معرفتنا وان نهتدى الى سر الدنيا الذى بحثنا عنه بشغف ومستقبل الانسانية التى اولعنا بها، وامل الا يكون فى هذا بأس ولا حرج ، والذين يرون الوجود واجبا لا لذة لهم الحق فى ذلك، وأنا لا اطالب بحقي فى الخلود الشخصى وإنما اريده شيئين اولا الا تذهب التضحيات التى قدمتها للصلاح والحق سدى ؛ ولست اريد ان اتقاضى لقاءها ثمنا وانما اريد ان تكون قد عادت بالفائدة واجدت بعض الجدوى ؛ وثانيا يسرنى السرور كله ان يعرف احد الناس القليل الذى قمت به، واريد تقدير الله ولا اتطلع الى اكثر من ذلك . فهل فى هذا غلو وتطوح ؟ وهل تعذل الجندى الجائد بروحه لاهتمامه بنهاية المعركة ولحرصه على ان يعرف رضاء قائده عنه ؟

ان الاحساس يبطل بموت العضو الذى يتعلق به . ويختفى

التأثير بذهاب المؤثر واذا تحلل الذهن فلا شعور بالمعنى المألوف للكلمة . ولكن حياة الانسان فى المجموع العام والمكان الذى يشغله فيه ونصيبه من هذا الشعور كل ذلك لاصلة له بالعضوى لأنه خالد باق . وللشعور علاقة بالمكان لا على انه مقيم فى نقطة خاصة ولكن على انه شاعر فى مكان محدود . اما الفكرة فليست لها مثل هذه العلاقة . وهى مجردة من المادة تجريداً بحتا ولا سلطان عليها للزمن ولا للموت . والمثل الاعلى هو الخالد ولا شىء سواه وكل شىء زائل ما خلاه وما خلا ما يعمل من اجله وما يخدمه

فلنتأس نحن الضحايا المعذبة فانه سيخاق من دموعنا اله

اتيفرون

للعلماء الاثباتيين اعتراض هام على ماجلوته . وايضا على كثير من الآراء التى بسطها فيلاليت وتيوفراست . لقد عزوت للكون وللمثل الاعلى مشيئات واعمال لم يعهدها الناس حتى الآن الا للكائنات العضوية . ولا شىء يبيح لنا حق اعتبار الكون كائنا عضويا ولو على شكل احط انواع الحيوانات النباتية . والا فاين اعصابه ؟ واين مخه ؟ ولم يثبت قط وجود شعور او احساس فى احط الدرجات فى كائن مجرد من المخ والاعصاب او بصريح العبارة من التركيب المادى

تيوكتست

اعتراضك مقبول حاسم ضد وجود الارواح المنفصلة والملائكة . ولكنه ليس حاسما من ناحية افتراض قوة جاهدة فى صميم الكون . النبض الغريزى ضرب من خصائصها ومبدأ اول مثل الحركة نفسها . ولم نستطع قط ان نضرب للكون مثل الحيوان الا من طريق المجاز لان الحيوان يدل على نوع وكثرة من الافراد والا لكان يوجد اذن أكوان عدة ! وتدل كل حقائق الطبيعة العامة على أن هذه الكتلة اللانهائية تعمل على ايجاد نوع من الرشح العام الذى نسميه شعورا لعدم وجود اسم أنسب وبسبب نزعة الى مذهب المشبهة لا مناص منها . وكل ما فى الطبيعة فى حركة. ولا مجال للشك فى ذلك . ولكن الحركة لها سبب وغاية فسببها المثال الاعلى وغايتها الوعى

فيلاليت

فى أكثر الاحايين أقول لنفسى انه لو كانت غاية الكون سيرة لهفانة معجلة مندفعة كالتى نفترضها لاتجاه العلم لما كان ثمة من أزهار ولا أطيار بهيجة ولا أفراح ولا ربيع. لان هذا كله يدل على اله اقل شغلا وهما مما نعتقد . اله يتسلى ويلهو ويستمتع بحالة كاملة كل الكمال

ايدوكس

سأذهب أبعد مما ذهبت . وسأزعم أن وسط الكون شيئا مستقرا . وهو مكان للافكار كما يقول ملبرانش . ونحن لا نفتأ نعود الى صيغ هذا المفكر الكبير كلما تناولنا العلاقه بين الله والكون وبين الفرد واللامحدود. صدقوني ان الله ضرورة مطلقة. ان الله سيكون والله كائن . فمن ناحية الواقع هو سيكون . ومن ناحية المثل الاعلى هو كائن . « الله في الكينونة والصيرورة معا » ولا يمكن ان ينمو ويترقى الا ما هو كائن . وكيف نتصور ترقيا بادئا من لاشيء ؟ ولو لم يجعل الاب السرمدي الهاوية خصبة مثمرة لظلت راكدة طوال الابد . فالتطور يصحب الوجود والكون . والحركة تلزم المحرك كالثقب الثابت وسط العجلة . وقد أجاد تيو كتست في اثباته أن الغاية الوحدانية هي وحدها التي تساعد على تحقيق أبعد افكارنا اعراقا في مسألة ضرورة عدالة اسمى للمرء وللانسانية . ولنضف الى ذلك انه اذا كانت الحركة قد وجدت من الازل فاننا لا نستطيع ان نتصور كيف ان الدنيا لم تصل الى الراحة والرتابة والكمال . وليس شرح كيف أن التوازن لم يحفظ حتى الآن ايسر من اظهار كيف اختل واضطرب . واذا كان الهداف الذي تحدثنا عنه بالامس قد استمر يوالي طلقاته منذ الازل لكان الآن قد أصاب الهدف

(اتيفرون)

نحن مشرفون الآن على المتناقضات الكائنية. تلك الهاويات الفاغرة في النفس الانسانية التي نحار فيها .. ومادمنا قد اقتربنا منها فلنقف فان العقل واللغة يتعلقان بالمحدود ونقلهما الى غير المحدود يشبه كل الشبه محاولة قياس حرارة الشمس اوجوف الارض بمقياس الحرارة العادى. والنمو الخاص الذى نشهده ليس سوى نمو ذرة ؛ ولكننا نريده ان يكون تاريخ المطلق ونحاول ان نجعل الابدية مسرحه ومجاله ونرتكب نفس الخطأ الذى يعرض لنا عند ما نحاول حل رموز اوراق بردى « هركالينام » حيث تقابل الاوراق المختلفة يجعلنا نلحق حروفا منها باحدى الصفحات فى حين انها متصلة بصفحة اخرى

(ايدوكس)

لنشكر تيوكتست لانه شرح لنا احلامه كلها ، « وهكذا يعبر القساوسة عن أنفسهم ولو ان هناك اختلافا فى اللهجة » ولا يتجنب الاشتغال بهذه المسائل سوى اهل العقول السطحية وهم يحبسون أنفسهم فى مغارة وينكرون وجود السماء ؛ ونفس هؤلاء الناس كانوا يقولون لكولومبس وهو يرمى ببصره الى افق البحر صوب الغرب « أيها الاحمق المسكين انك تبصر جيدا انه لا شيء وراء ذلك »

(فيلاليت)

بعد سنوات قلائل اذا امتد بنا العمر وبقيت الدنيا يمكن ان

نعاود البحث فى هذه المسائل ونرى كيف تعدلت طريقة نظرنا الى الكون ، ومما يطيل الاسف اننا لانستطيع ـ كما فى الاسطورة التى رواها توماس دى كانتمبريه ـ ان نعين مكانا للقاء الذين سيدركهم الموت منا ليقدموا النا بيانا عن حالة الاشياء الحقيقية فى الحياة الاخرى!

(ايدوكس)

اعتقد ان شهادة الميت فى مثل هذه المسألة قليلة القيمة ، كما ورد فى المثل « انهم لا يقتنعون ولو قام احد الموتى » أما من ناحية الفضيلة فان كل انسان سيجد التأكيد الكافى بمناجاته لقلبه

(تمت)

الفهرس

استدراك

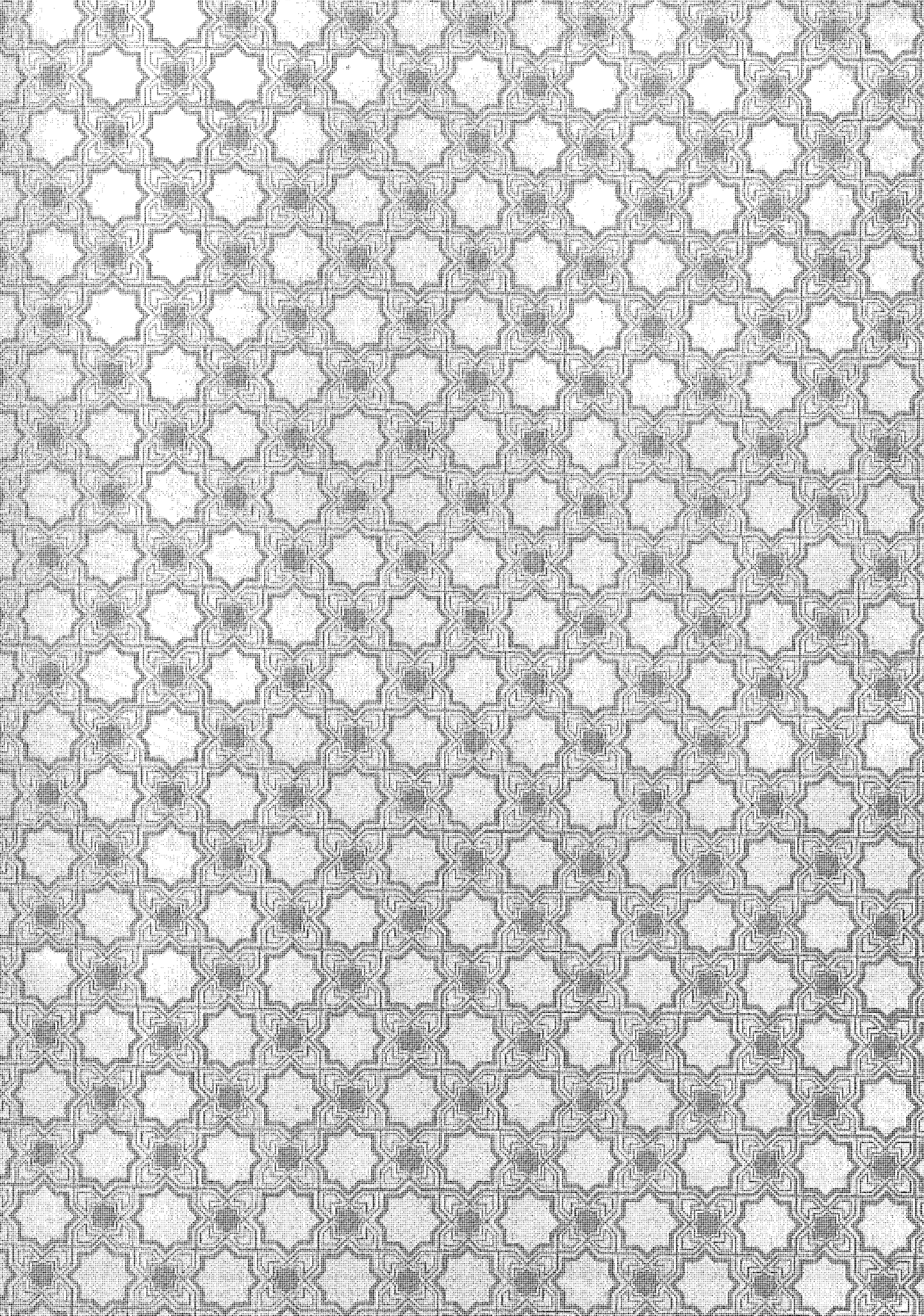
نستدرك هنا اكثر ماوقع فى طبع الكتاب من الاغلاط ونرجو القارىء ان يستدركها هو الآخر فى مواضعها

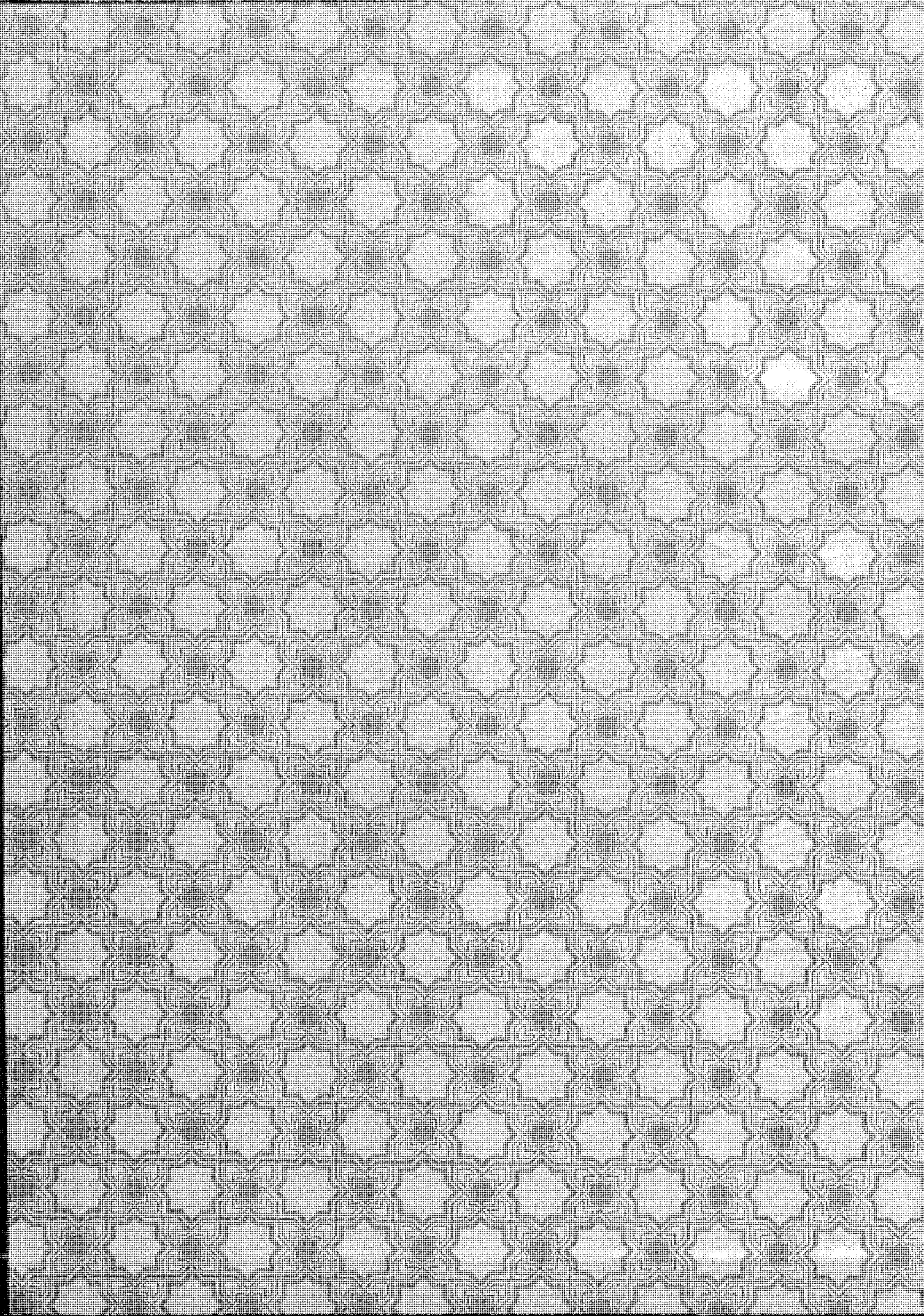
صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣	٨	الرويئة	الرؤية
٤	٢	ملأت	انتظمت
٤	٢	ملات	ملأت
٤	٨	عريتهم	غريتهم
٦	١٨	ميدان	ميدانه
١٠	٩	يبثون	يبنون
١١	٦	بآثار	باطار
١٢	٩	بمعايير هم	بمعاييرهم
١٥	١٥	غورا	حقا
٢١	١٢	شلخ	شلبج
٢٣	٣	طل	باطل
٢٦	٨	أديب	أريب
٣٠	١٨	الحالتين ان	الحالتان
٣٢	١١	ثانيه	ثانية
٣٤	١٩	ابرا	أثرا
٣٥	٣	أوراقا	أوراق
٤١	٨	الأستعمال	الاستعمال
٤٥	٣	تتجاذت	تتجاذب
٤٥	١٨	ترتكبها	نرتكبها
٤٨	١٨	اختصرت	اقتصرت
٥٠	٨	يحي	يحيا
٥٣	٥	غزارة	غرارة
٥٣	١٧	عيلها	غليلها
٥٤	١٨	الزهد	الزهو
٥٤	١٨	للاصلاح	للصلاح

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٥٥	٢	مرزولة	مرذولة
٥٥	١١	قاله	ماقاله
٥٩	١٧	التكافىء	التكافؤ
٥٩	١٨	تأكدى	بتأكدى
٦١	١٠	التمرد	التمدد
٦٢	٣	الذاتى	الدانى
٦٢	٧	على	أعلى
٦٢	٩	يقفوا	يقفو
٦٤	١	ستعرض	نستعرض
٦٤	١٦	مفهوم	المفهوم
٧٧	٤	تقعد	تعقد
٨٥	١٧	الكافى	الكائن فى
٨٩	١٧	المدرسة الجديدة	المدسةالماديةالجديدة
٩٥	١٣	بدأ	بدء
٩٦	١١	فناؤهما	فناءه '
١٠٣	٦	يملأها	يملؤها
١٠٤	١٣	ثمث	ثمة
١٣٠	٦	كنفس	للنفس
١٣٠	٧	للبيرا	كبيرا
١٤٥	٥	الى الملكى	الملكى
١٤٥	٦	اب	الى اب
١٥٤	٤	تترءى	تتراءى
١٥٥	١٦	المحهولين	المجهولين
١٥٧	١٢	شيئين	لشيئين

رقم الإيداع بدار الكتب ١٧٨١/ ١٩٩٨

I. S. B. N. 977 - 19 -0084 - 1






Bibliotheca Alexandrina
0290879